سورة الأنعام

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ۖ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا ۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُ ۖ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ ۖ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴿٣﴾ ﴾

وَجَعَلَ: أنشأ وأبدع .

بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ: يسوون به غيره في العبادة .

قَضَى أَجَلاً: كتب وقدر زمانا معينا للموت .

وَأَجَلٌ مسَمًّى عِندَهُ: زمن معين للبعث مستأثر بعلمه.

تَمْتَرُونَ: تشكون في البعث أو تجحدونه .

وَهُوَ الله: أي المعبود أو المتوحد بالألوهية .

إن نظام السموات والأرض، على ترامي أطرافه إلى غير نهاية، نظام وحداني ومنسق تنسيقاً دقيقاً لدرجة أنه يصرخ بلسان حاله أن خالقه ومنظّمه لا يمكن أن يكون غير الله الواحد الأحد، ثم إن هذا الكون في سعته اللامتناهية، وما تنطوي عليه ظواهره وأحداثه من روحٍ ومعنويةٍ وخصائصٍ حكيمةٍ، فدورة الأرض المنتظمة للغاية حول كرة الشمس النيّرة في الفضاء؛ وما يترتب عليها من تعاقب النور والظلام واختلاف الليل والنهار على سطح أرضنا، لهي حدث أكبر بكثيرٍ من كل تصورات الإنسان وقياساته، فلنتساءل: إن الإله الذي يقوم على إدارة كون كبير، بمثل هذه الدقة

الفائقة؛ تُرى أي نقصٍ سيُحتمل وجودُه في ذاته يبعثه على اتخاذ ندٍ أو شريك له في عمله؟! الحقيقة أن كوننا هذا ؛ بما يُوجد فيه من نظامٍ رائعٍ عجيبٍ، يقوم بحدّ ذاته دليلاً حياً صارخاً على أن خالقه ليس إلا إلهاً واحداً، كما يشهد هذا النظام أن هذا الإله عظيم الشأن واسع السلطان وليس بحاجة إلى أي مساعدٍ في تكوينه ولا في إدارته وتدبيره.

وعمر الدنيا الحاضرة قصير محدود، وليس بإمكاننا أن نعيش حياةً خاليةً من التعب والعناء، إذْ ما من لذةٍ إلا وهي تحمل معها جانب ألمٍ، وكل صفوٍ يتبعه ما يكدره، إن الخير والشر توأمان متلازمان بحيث يستحيل أن نفصل أحدهما عن الآخر فصلاً كلياً، وبالنظر إلى هذا الوضع طالما يقع المرء في حيرةٍ وارتباكٍ، فيتساءل : كيف تتكوّن دنيا الآخرة الأبدية ؛ تلك التى ستكون خلواً من كل ألوان الحزن (على حد قوله تعالى حكايةً عن انطباعات أهل الجنة : ﴿ وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ﴾ [فاطر : ٣٤] ، فإذا كان ذلك العالم الثاني سيتكون من موادّ هذا العالم، فإن عالمنا هذا ناقص، وهو بذلك لا يتمتع بصلاحية إيجاد عالمٍ كاملٍ كالآخرة، وأمّا إذا كانت هناك أية مادّة أخرى ستستخدم في تكوين العالم الآخر، فإن الإنسان لا يدري ما هي؟!

ومن أجل التوصل إلى إجابة شافية عن هذا التساؤل، يكفي أن ينظر السائل إلى وجود نفسه، فإن جسد الإنسان بأكمله قد صُنع من التراب - أي من العناصر الأرضية - ولكن التراب يخلو حتى من صلاحية واحدةٍ من جملة تلك الصلاحيات الفريدة الممتازة التي أودعت في الجسد الإنساني، فالإنسان يسمع ويُبصر، وهو ينطق ويفكر، ويقوم بإنجاز ما لا يحصى من ألوان النشاطات والأعمال المثيرة للدهشة والإعجاب، بينما التراب - الذي هو مصنوع منه - لا يستطيع إنجاز أي عملٍ من هذا النوع، فقد خرج كائن غير أرضي من عناصر أرضية على وجهٍ يدعو إلى الحيرة، وهذه تجربة لا يزال المرء يمر بها كل يومٍ، فما أعجب وأغرب أن يشك المرء في إمكان وقوع الآخرة !!

فلو أمكن أن يخرج من التراب إنسان حي عاقل، ولو أمكن أن يكون التراب منبت زهورٍ جميلة المنظر، وفواكه لذيذة حلوة المذاق ؛ لو كان هذا كله ممكناً، فلم لا يمكن - إذن- أن يظهر إلى الوجود عالم أكمل وأرقى وأرفع مستوى مستمداً عناصر تكوينه من عالمنا الحاضر ؟!.

﴿ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَـٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَـٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٥﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَـٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَـٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٦﴾ ﴾

أَنْبَاءُ: أخبار وهو ما ينالهم من العقوبات .

كَمْ أَهْلَكْنَا: كثيرا ما أهلكنا .

قَرْنٍ: أمة من الناس.

مَكَّنَّاهُمْ: أعطيناهم من المكنة والقوة .

السَّمَاءَ: المطر

مِدْرَاراً: غزيرا كثير الصب.

إن الدعوة إلى الله والآخرة، التي تقوم على تأييد مباشرٍ من الله - عز وجل - تتضمن علاماتٍ واضحةً تعلن أنها دعوة حقة، وأنها من عند الله تعالى، فانسجام الدعوة مع منهج الفطرة، ذلك الذي يسير عليه نظام دنيا الله الأبدية، وارتكازها على دلائل وبراهين قاطعةٍ لا يتأتى نقضها وإبطالها لأحدٍ، وتواجد داعٍ مخلصٍ وجادٍ على ظهرها، لا يشوب جديته وإخلاصه شائبة تكلف أو رياء، ثم اقترانها بوقائع تعزيزية أو

تأييدية تخيب آمال معارضيها كلها فلا يكادون يبلغون ما يرمون إليه من وراء مخططاتهم التخريبية ضدها، رغم تفوقهم المادي الكبير، وكثرة عددهم وعتادهم الظاهرة، فأمثال هذه القرائن الواضحة تصاحب الدعوة، والتي تدل دلالةً صارخةً على صدقها وحقانيتها، غير أن الإنسان لا يؤمن بها، ولا يرضى بالوقوف إلى جانبها، ومرجع ذلك إلى أن كل هذه القرائن التأييدية المصاحبة للدعوة، على غاية وضوحها وجلائها، تظهر دائماً مقنعة بحجابٍ من الأسباب والعلل، ومن ثم فإذا ما تبدّت هذه القرائن أمام المرء، فلا يلبث أن تمّر بها مرّ الكرام، ناسباً إياها إلى بعض العوامل والأسباب المعيّنة، ولا يكاد ذهنه يستعدّ للتحول في متجّه الاعتراف والتسليم، فيرفضها قائلاً : إن هذه الدعوة لو كانت من عند الله، لبرز الله وملائكته معها بصورةٍ مكشوفةٍ، وهي فكرة باطلة كل البطلان، لأنه إذا تجلّى الحق - سبحانه وتعالى - والملائكة بصورةٍ مكشوفةٍ للعيان، فسيكون ذلك موعد القضاء النهائي، وليس أوان الدعوة والتبليغ!!

إن الذين تقيض لهم الأقدار التمكن والاستقرار في الأرض، والذين يحالفهم التوفيق لادخار أموالٍ طائلةٍ، وامتلاك وسائل المتعة والعيش الرغيد لأنفسهم، والذين تحيط بهم مظاهر المجد والسمعة البّراقة، دائماً ما يقعون في سوء الفهم والتقدير، فلا يلبثون أن يحتقروا ما يجمع الله حول الداعي إلى الحق ويؤيده به، بالمقارنة مع الأشياء والمظاهر التي تجمعت حول أنفسهم وتشتد ثقتهم بذاتهم، فلا يخافون من عقاب الله، فيأخذون في الاستهزاء بتحذيرات داعي الحق المتكررة المتمثلة في : أن عنادكم وطغيانكم لو ظل مستمراً كعهده، ولم تقوموا بوضع حدٍ له، فإن رقيكم المادي الباهر، وأمجادكم الدنيوية الفخمة لن تنجيكم من مؤاخذة الله وبطشه الشديد، ولكن نظرتهم إلى داعي الحق المفعمة بالازدراء والاستهتار، تجعلهم يعتبرون تحذيراته تافهة لا تستحق أن يُلتفت إليها أو يقام لها وزن!

كما أن أحداث الماضي التاريخية لا تعود تجدي شيئاً في زجرهم عن التمادي في البغي

والتمرد ودفعهم إلى التذكر والاعتبار ؛ فقد أباد الله أقواماً أعزّ منهم جانباً، وأشدّ منهم بأساً وقوة، وأكثر منهم جمعاً وإحرازاً للوسائل المادية .

إن ظاهرة سقوط الأمم ونهوضها في الأرض، الواحدة بعد الأخرى على التوالي، توحي بوجود قانون عام وثابت لا يتخلف ؛ ألا وهو ((قانون المكافأة))، غير أن المرء لا يعتبر، فلا يزال المتأخّرون يعيدون العمل نفسه الذي كان وراء هلاك الأوائل وذهابهم كأمس الدّابر!

﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ ﴾

كِتَاباً فِي قِرْطَاسٍ: مكتوبا في كاغد أو ورق.

لاَ يُنظَرُونَ: لا يُمهلون لحظة بعد إنزاله .

وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ: لخلطنا وأشكلنا عليهم حينئذ ما يخلطون على أنفسهم .

فَحَاقَ: أحاط وأنزل.

كَتَبَ: قضى وأوجب ، تفضلا وإحسانا .

خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ: أهلكوها وغبنوها بالكفر.

مَا سَكَنَ: ما استقر وحل .

إن سبب ضلال المرء وانحرافه في الدنيا، يرجع إلى أنه يتمتع بكامل الحرية لإنكار الحق ومخالفته، وعالم الامتحان فسيح المجال لدرجة أن الألفاظ لا تلبث أن تنصاغ في كل قالبٍ من المفاهيم يريد الإنسان أن يصوغها فيه، فلو ظهر الداعي في هيئة رجلٍ كعامة البشر، فبمستطاع المرء أن يُعرض عنه قائلاً : إنه رجل نهض من أجل طموحه القيادي، وليس من أجل قضيةٍ تتصل بالحق والصدق، وهكذا لو نزل من السماء كتاب مكتوب على ورقٍ فإنه سيجد لرفضه كلمات : ﴿ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٧ ﴾ !!

كان أهل مكة يقولون : لو أن هذا النبي قد تمّ تعيينه في الواقع من عند الله لتبليغ رسالته إلى البشر إذن، فلم لا ينزل ملائكة الله يشهدون بنبوته وصدقه دعواه!؟، وإنما يلوك المرء مثل هذه الأقاويل لأنه لا يكون جاداً لأمر الدعوة، إذْ لو كان جاداً لأدرك من تلقاء نفسه أن هذا العالم هو عالم امتحان واختبارٍ ؛ ولا معنى للامتحان إلا إذا كانت الحقائق الغيبية مستورةً وراء حجابٍ، وأما إذا انكشفت الحقائق الغيبية، وبالتالي ظهر الله وملائكته للعيان، فلن تكون حاجة للدعوة وإبلاغ الرسالة، لأن أحداً ما لن يتجرأ بعدئذٍ على إنكار الحقائق .

والناس في هذه الدنيا، بسبب عبوديتهم للظواهر والأشكال، لا يستطيعون النظر إلى داعي الله من خلال عظمة كلامه وسمّو رسالته، فيقيسونه باعتبار وضْعه الظاهري فقط، ولا يلبثون أن ينكروه إذا وجدوه غير ذي شأنٍ أو أهميةٍ في هذا المقياس، حتى إنهم لا يتحرّجون من اتخاذه موضوع للسخرية والتندّر والاستخفاف، لأن داعي الله يبدو لهم رجلا عاديًا مغمورًا يندفع فجأةً فيدعي لنفسه أشياء كثيرة !!

إن عملية إبلاغ الدعوة في هذه الدنيا تتم وفقاً لقانون اللبس الإلهي ؛ فقد أُحيط الحق هنا بجانبٍ من الإشكال والارتياب ؛ وذلك ليجد المرء نفسه بإزاء وجوهٍ للإنكار إلى جانب دلائل تدعو إلى الإقرار، وامتحان المرء الأصلي هو أن يتوصّل إلى مقام اليقين مع تمزيق حجاب الشبهة والارتياب، فهو مطالب بأن يحذف كل جوانب الشبهة ويركز

اهتمامه على جوانب اليقين، إن الامتحان الحقيقي للمرء في أن يؤمن بالغيب ؛ أي بدون الرؤية المباشرة للحقيقة، لأنه لا قيمة للإيمان بعد ما كُشف عن الحقيقة ، وباتت تُرى وتُشاهد وتُلمس على نحوٍ مباشرٍ !

﴿ قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُل لِّلَّهِ ۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ ۞ وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ۗ قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾ قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ ﴾

وَلِيّاً: ربا معبودا وناصرا معينا .

وَهُوَ يُطْعِمُ: يرزق عباده .

مَنْ أَسْلَمَ: خضع لله بالعبودية وانقاد له .

ما بال الإنسان، ينكر الحق على غاية وضوحه وجلائه، ويسوم الآخرين خسفاً كلما أحسّ البأس والقوة، وما بال إنسانٍ يجعل من أخيه الإنسان هدفاً لظلمه وعدوانه بغير حقٍ ؟! لم هذا كله؟! هل الإنسان له السلطة المطلقة في هذه الدنيا ؛ يفعل ما يشاء، متى يشاء، كيف يشاء ؟ أليس هنالك من أحدٍ يأخذ على يده؟! هل مرجع ذلك إلى تناقضٍ يوجد في صنع الله وتدبيره، لأنه ملأ بقية الكون رحمةً وحكمةً ومعنويةً، وأما دنيا الإنسان فمملوءة ظلماً وجوراً واغتصاباً للحقوق ؟! . لا، لا، كلا .. إن الله الذي بيده ملكوت السموات والأرض، هو الله ذاته المالك للإنسان الذي يدبّ ويتحرك بالنهّار، ويلجأ إلى الهدوء والسكون إذا انتشر ظلام الليل، وكما أن الله تعالى هو الرحمة كلها لبقية

الكون، فإنه تعالى الرحمة كلها لبني البشر، غير أن ثمة فارقاً بين الحالتين، ألا وهو أن رحمات الله قد ظهرت وشملت بقية الكون منذ بدء الخلق، بينما سيتم ظهورها في عالم الإنسان على وجهٍ أكمل وأشمل في يوم القيامة .

الإنسان كائن ذو إرادة، والمطلوب منه عبادة إرادية أي صادرة عن إرادة ووعي، ومن ثم فإن الذين لا يستخدمون إرادتهم - تلك الصلاحية المميزة لهم عن الكائنات الأخرى - على الوجه الصحيح، غير جديرين أن ينالوا نصيباً من الرحمة الإلهية ؛ لأنهم لم يقوموا بتحقيق الغاية التي من أجلها خلقهم الله، وعقب انتهاء فترة الاختبار المحددة، سوف يُحشد الناس من أولهم إلى آخرهم في عالمٍ جديدٍ، وسيقبض الله يومئذٍ على أمور الدنيا بحذافيرها كما هو قابض على شئون بقية الكون، وسينصب يومئذٍ ميزان العدالة الإلهية ويفوز بالفلاح والسعادة يومئذٍ الذين أخضعوا أنفسهم في الدنيا لطاعة الله، اعترافاً وتسليماً بالحقيقة الواقعة، وسيكون الهلاك والخسران المصير المحتوم للذين لم يعترفوا بالحقيقة الواقعة، وظلوا في دنيا الله يسيرون على طريق العناد والطغيان !

إن الإنسان حينما يطغى، فطغيانه ناشئ عن اعتماده على سند، غير أن الأشياء التي يدفع اعتماد الإنسان عليها إلى ممارسة الطغيان والتمرد، لا حقيقة لها في هذا الكون، إذْ كل شيء هنا غاية في العجز والضعف، وإنما الله وحده يملك القوة والاقتدار، الجميع محتاجون إليه، وهو في غنى عن الجميع،، ولن يظفر بالنجاة في يوم الدينونة - القضاء الإلهي الأخير - إلا الذي سيكون قد استند إلى السند الحقيقي، والذي سيكون قد اختار الدين الإلهي الحق كمنهاج لحياته العملية!

﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٨﴾ قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ

﴿وَمَنۢ بَلَغَۚ أَئِنَّكُمۡ لَتَشۡهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخۡرَىٰۚ قُل لَّآ أَشۡهَدُۚ قُلۡ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ وَإِنَّنِي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ١٩﴾

وَمَن بَلَغَ: من بلغه القرآن إلى قيام الساعة.

إن هذا الكون العظيم المترامي إلى حدٍ أبعد عن مواقع أبصارنا، ترتبط مختلف أجزائه برباطٍ من الضبط والتنسيق متينٍ وشاملٍ، حتى إن حادثاً واحداً يستلزم إيجاده مساعدة الكون بأكمله، وبناءً على ذلك فإن أي إنسانٍ، كائناً من كان، ليس بقادرٍ على إحداث واقعٍ ما ؛ لأن أي إنسان ليس بقابضٍ على أزمة الكون يديره كيفما شاء، إن شيئاً متناهياً في الصغر والبساطة هنا لا يظهر إلى الوجود إلا إذا توافر على ظهره ما لا يُحصى من العوامل والأسباب الكونية، وإنه ليس هنالك من أحدٍ يحكم ويتصرف في تلك الأسباب والعوامل الهائلة غير الله عز وجل، ولا يملك الإنسان بإزاء الأسباب الكونية سوى إرادة ضئيلة غاية في الضآلة .

والحقيقة إنه إن ظفر أحد الناس في الدنيا بشيء من الخير والعافية، أو أصابته بنوعٍ من الشر والأذى، إنما يحدث وفقاً لمشيئة الله العليا وبإذنه تعالى مباشرةً، فلا يزعم زاعمٌ أنه يتمكن من تدمير أحد أو إسعاده، إلا أن يكون على جانبٍ عظيم من الحمق والغباوة، كما أن من أعظم الأمور سخافةً أن يعتقد المرء أن هناك أحداً غير الله يستحق أن يُخشى منه خشيته من الله، أو يتخذه موضع رجائه وآماله!

إن كتاب الله هو وحدهُ المرجع الذي يُحتكم إليه حسماً للصراع الذي يدور بين أهل الحق وأهل الباطل في الدنيا، إذْ لا أحد غير الله يعلم الحقائق الظاهرة والخافية، ولا أحد سواه تعالى يتمتع بأي نوعٍ من السلطان والقوة، لذا فإن ((الوسيط الوحيد)) الذي يصح الاعتماد عليه في هذا الخلاف هو الله – سبحانه وتعالى – وقد بعث الله بهذا الوسيط إلى الناس في صورة كتاب، وهو ((القرآن الكريم)) .

والمرء الآن في مواجهة طريقين : فلو أنه يجهل صدق القرآن، فعليه أن يسعى جهده

للبحث والتحقيق فيما إذا كان هذا القرآن كتاب الله حقاً أم لا، ثم إذا أوصله بحثه إلى المعرفة بأنه كتاب الله من غير شكٍ، تعين عليه حتماً أن يرضى بحكمه، فإن الشخص الذي لا يرضى بحكم القرآن يعرّض نفسه لموقف مخزٍ وخطيرٍ سيواجهه في اليوم الآخر، لأنه سيجبر يومئذٍ على الرضا والإذعان لحكمه قهراً ومقابل هوانٍ بالغٍ وعذابٍ شديد!!

وقد أُنزل القرآن من أجل أن يتم تنبيه الناس وإنذارهم بساعة القضاء الرهيبة القادمة قبل مجيئها، ولقد قام الرسول بهذه المهمة في زمانه، وصار من واجب أمته، بعد لحوقه بالرفيق الأعلى، أن تضطلع بهذه المهمة إلى يوم القيامة، إن القرآن بلاغ مسبق بما سيجري عليه تعامل ربّ الناس مع الناس في عالم الآخرة الأبدي، الدعاة والمبلغون سيتفرغون لأداء المسئولية المنوطة بهم، إذْ بذلوا أقصى جهودهم وطاقاتهم لإبلاغ الدعوة إلى الناس، غير أن نجاة المخاطبين عند الله تتوقف على أن يؤمنوا بها، ويمارسوا حياتهم العملية على أساسها، فنهاية مسئولية الداعي في استفراغ مجهوده لعملية «التبليغ»، أما نهاية مسئولية المدعو ففي الطاعة والإذعان للدعوة ومقتضياتها .

﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ۘ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢١﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ۚ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾

فِتْنَتُهُمْ: معذرتهم ، أو عاقبة شركهم .

وَضَلَّ عَنْهُم: غاب وزال عنهم .

ما كَانُوا يَفْتَرُونَ: يكذبون ـ الأصنام وشفاعتهم .

إن الحقيقة شيء معروف ومعلوم لدى المرء ؛ لكونها ممزوجةً متأصلةً في صميم الفطرة البشرية من جهةٍ، وتردد صداها الصامت باستمرارٍ في كل ناحية من نواحي الكون من جهةٍ أخرى، أما شأن اليهود والنصارى في هذا الباب، فكان متجاوزاً إلى حدٍ أبعد من ذلك بكثير، إذْ كانت عندهم أخبار صريحة ومتواترة حول القرآن وأوصاف نبي آخر الزمان - عليه الصلاة والسلام - تمّ إعلامهم بذلك كله مسبقاً بواسطة الأنبياء والصحف التي أرسلها الله إليهم حتى صار أمر معرفته - عليه الصلاة والسلام - كما يعرف الواحد منهم ولده .

لماذا يرفض الإنسان التسليم بالحقيقة رغم كونها واضحةً وضوح الشمس ؟!، السبب هو الخوف من بعض الخسائر الوقتية، فالتسليم بالحقيقة يتم دائماً على حساب أن ينزل المرء بنفسه عن مركز السيادة والكبرياء، وأن يخرج من قوقعة التقليد ودائرة المألوف الضيقة إلى جديدٍ غير مألوفٍ، ويتخلّى عن المنافع الحاصلة الموجودة، وهذه تضحية قلّما يرضى المرء بتقديمها، لذا فلا يكاد يستعد لقبول الحق، إنه يعرض نفسه للخسارة الأبدية من أجل منفعةٍ وقتيةٍ زائلةٍ !

ويزيده إصراراً على موقفه، واطمئناناً زائفاً إليه، أنه يُوفّق، في عالم الامتحان هذا أن يظفر بتفسيرات موافقة ومؤيدة له، كما يجد ألفاظاً كاذبةً خادعةً ينقض بها الدلائل والبراهين التي تظهر لصالح الصدق، حتى يتمتع بكامل الحرية لأن يختلق تفسيراً مزعوماً للحقيقة، ثم يدعي قائلاً : إن المتمسك به هو الصدق عينه!

وإن المرء إذْ يتخذ من الأشياء الأخرى - غير الله - موضع اهتمامه، فلا تلبث أن تصير على امتداد الأيام محاطة بضروبٍ من الطلاسم والمؤيدات الافتراضية لها، لأنه يصطنع هالةً خياليةً مشكّلة من آمالٍ وهميةٍ وأمانٍ كاذبةٍ تملؤه غروراً وانخداعاً بأنه قد استمسك بالعروة الوثقى !!

ولكن إذا مزّقت القيامة كل الحجب والأستار، وبالتالي اتضح للمرء أن كل ما

استند إليه من دون الله كان سنداً واهياً باطلاً، فلن يجد أمامه سوى أن يأخذ في نفسه جميع ما كان يقوله ويدّعيه ويفعله في الدنيا، ويحاول تبرئة نفسه بنفسه، وشأن هؤلاء شأن مجرمٍ مشدوهٍ انخلع قلبه لهول الموقف بين يدي المحكمة، فطفق يدلي بالشهادة ضد نفسه !! وهكذا سيُنكر هؤلاء كل تلك الأشياء التي ظلوا مناصرين متحمسين لها في الدنيا، فخورين معتزين بانتمائهم إليها، ينكرونها بأنفسهم في محكمة الآخرة .

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ۖ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ ۖ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾

أَكِنَّةً: أغطية كثيرة .

وَقْراً: صمما وثقلا في السمع .

أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ: أكاذيبهم المسطرة في كتبهم.

وَيَنْئَوْنَ عَنْهُ: يتباعدون عن القرآن بأنفسهم .

وَقِفُوا عَلَى النَّارِ: عرفوها ، أو حبسوا على متنها .

في عالم الامتحان الحاضر، لا تزال الفرصة مفتوحةً أمام المرء لكي يفسّر كل شيء على الوجه الذي يراه موافقاً لهواه ؛ محققاً للغرض الذي يتوخّاه، ومن ثم فإن الذين يستمعون إلى ما يُعرض عليهم من الكلام بعقليةٍ متعصبةٍ، يكون حالهم كما لو أن آذانهم موقورة معطّلة، وعلى قلوبهم أغطية كثاف، فما ينتفعون بما يسمعون، ولا يفقهون ما

يوجه إليهم، ولا تعود الدلائل والبراهين تُجدي في إقناعهم شيئاً، لأنهم إذ يستمعون فإنما يستمعون بدافع الجدل والمكابرة، وليس بدافع التذكر والاتعاظ، وتكون نفوسهم خاويةً من الرغبة الصادقة في التلقي أو الفهم والتدبر، فيؤدي إلى عدم تمكنهم من إدراك الجوهر الأصلي لأي حديثٍ، وعلى العكس من ذلك، فإنهم لا يلبثون أن يجدوا في كل حديثٍ شيئاً بقصد التشويش عليه أو الإلواء به عن وجهه إلى ضده ، لا تجد الدلائل منفذاً إلى أذهانهم حتى تصبح جزءاً منها، وبسبب عقليتهم المعاكسة فدائماً يتناولون كل شيءٍ من ناحية واحدةٍ من نواحيه العديدة ؛ وهي الناحية التي تمكّنهم من إعطاء ذلك الشيء مفهوماً خاطئاً، وإقناعاً لأنفسهم بأنهم على الحق، وأن ما عداه الباطل والضلال ! ولا جدوى في عرض الدلائل والبراهين، مهما كانت قوية دامغةً، على الذين تغلب عليهم هذه الطبيعة العوْجاء، لأنه لا يوجد في عالم الامتحان هذا، أي دليل من شأنه أن يحول بين المرء وبين حصوله على بعض الكلمات المزعومة الطنّانة يرده بها، وحتى إذا لم يتمكن من الظفر بدليل مناقضٍ للأول، فلن يمتنع عن أن يُعرض عنه، مستهيناً به قائلاً : ليس هذا بشيءٍ جديدٍ، إنما هو أسطورة من الأساطير القديمة البالية التي ظلت تُعاد وتُكرّر على ألسنة الأجيال والشعوب منذ دهورٍ متطاولة، وقد سمعناها مراراً ما أغنانا عن سماعها الآن، ولو شئنا نحن لقلنا مثل ذلك ، وهكذا سيجد المرء حيلةً لرفضه مع تمام اقتناعه بصدقه وحقيته. وأمثال هؤلاء يرتكبون جريمةً مضاعفةً في جنب الله، لأنهم لا يبتعدون عن الحق بذاتهم فحسب، بل بتشويه دليل إلهي يجعلونه أيضاً ملتبساً ومشكوكاً فيه لدى عامة الناس ذوي الأفهام الساذجة البسيطة الذين لا يستطيعون أن يحللوا الأمور تحليلاً دقيقاً ويسبروا أغوارها.

وديدن أمثال هؤلاء في الحياة الدنيا الصلف والتحذلق في الكلام، وبما أن إنكار الحق في هذه الدنيا لا يُسبب للمرء أية خسارةٍ أو مصيبةٍ عاجلةٍ، فيتورط فى سوء الفهم، فإذا سُئل يوم القيامة، وهو موقوف على النار، فستنكشف له الحقائق كلها، وسيأخذ حينئذ يقرّ تلقائياً بجميع تلك الأشياء التي كان يرفضها ويستهين بها في الحياة الدنيا!

﴿ وَقَالُوٓاْ إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا وَمَا نَحۡنُ بِمَبۡعُوثِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمۡۚ قَالَ أَلَيۡسَ هَٰذَا بِٱلۡحَقِّۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَاۚ قَالَ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ﴿٣٠﴾ قَدۡ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةٗ قَالُواْ يَٰحَسۡرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطۡنَا فِيهَا وَهُمۡ يَحۡمِلُونَ أَوۡزَارَهُمۡ عَلَىٰ ظُهُورِهِمۡۚ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا لَعِبٞ وَلَهۡوٞۖ وَلَلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۗ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾

بَغْتَةً: فجأة من غير شعور .

فَرَّطْنَا فِيهَا: قصرنا وضيعنا في الحياة الدنيا .

أَوْزَارَهُمْ: ذنوبهم وخطاياهم.

إن إنكار أحد الناس للحق، أو انسياقه وراء الشهوات وأهواء النفس، يرجع إلى سببٍ واحدٍ، وهو خواء قلبه من الإيمان بأنه سوف يُبعث مرةً أخرى بعد الموت، ويُوقف بين يدي مالك الكون للحساب عن حياته الدنيا.

والمرء في هذه الدنيا أتيح له الاختيار، يستخدمه كيفما شاء بدون تعويقٍ ولا اعتراض، كما تتوافر لديه أموال ضخمة هي مبعث طمأنينته، ويتواجد حوله جمع من الأصدقاء، والأنصار، هم موضع ثقته واعتماده، ويتمتع بعقلٍ يستعين به لتدبير الحيل والمكائد، وتبرير بغيه وطغيانه وتحويل مساوئه إلى حسناتٍ، كل هذه الإمكانيات المتاحة له توقعه في وهمٍ وغرورٍ، فلا يلبث أن يعتمد اعتماداً كاذباً على المظاهر الأخرى غير الله تعالى، ويزعم بأني سأبقى على الدوام، في رغد العيش، ووفرة المال، وكثرة الأعوان والأصحاب .. إلخ ، ويغيب عنه أن كل ما هو حاصل علية في الدنيا، إنما أعطي له للامتحان والابتلاء، وليس على الاستحقاق والجدارة ! وهذا اللون من الحياة، هو جريمة الإنسان الكبرى .

obeikandi.com

إنه المرء يتهالك على الأشياء الدنيوية تهالكاً، كما لو كانت الغاية من الحياة، والسؤال: من الذي أعطاه حق التصرف في الأشياء على هذا النحو ؟ فالمرء لم يدفع أي ثمنٍ أو عوض عن هذا النور الذي يمشي فيه، والهواء الذي يستنشقه، لم يصنع بنفسه أي جزءٍ من أجزاء هذه الأرض التي يستنبت منها رزقه وطعامه ولا يدله في إيجاد شيء من جملة الأشياء المرغوب فيها، والتي يسعى جهد طاقته من أجل الحصول عليها واقتنائها !! فإذا لم تكن هذه الأشياء من خلق الإنسان نفسه، فهل ليس لموجدها ومالكها إذن أي حقٍ على المرء ؟! إن الحقيقة أن استمتاع المرء بالعالم الحاضر وما فيه، يستتبع أن يأتي يوم يُحضر فيه أمام خالقه ومالكه للحساب !

إن الذين يمارسون حياتهم، ويعتبرون الدنيا ملكاً لله، تكون حياتهم ((حياة التقوى)) وأما الذين لا يعتبرونها ملكاً الله، فإن حياتهم تكون سلسلةٍ من اللهو واللعب، وحياة اللهو واللعب لذة عارضة لا تلبث أن تنقضي مع انقضاء ساعات العمر المحدود، بينما حياة التقوى ستبقى إلى الأبد مصدر سرورٍ ومتعةٍ لقلب المرء، لا يعتريها الفناء والزوال، لأنها تستمد أساسها من التوجيهات والمبادئ الإلهية الأبدية .

وينكر المرء هذه الحقائق في العالم الحاضر، ولكن حين تنتهي حرية الاختيار، يجد نفسه مضطراً إلى الإقرار بها، بيد أن الإقرار في ذلك الوقت لن يُغني عنه شيئاً !

﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٥﴾ ۞ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ ۘ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾

كَلِمَاتِ اللهِ: آيات وعده بنصره رسله.

كَبُرَ عَلَيْكَ: شق وعظم عليك.

نَفَقاً فِي الأَرْضِ: سربا فيها ينفذ إلى ما تحتها.

كان أبو جهلٍ يقول لرسول الله ﷺ: ((ما نكذبك يا محمد، وإنك عندنا لمصدّق وإنما نكذب ما جئتنا به))[1]، وهكذا جميع كفار قريش، ومشركي مكة، كانا يعتبرونه - عليه الصلاة والسلام مع عدم إيمانهم به كنبي - إنساناً صادقاً نزيهاً، ولكن الإقرار لأحدٍ بجريان الحق على لسانه، يعني منحه شرفاً عظيماً جداً، ولم تتسع صدورهم لمنحه عليه الصلاة والسلام شرفاً عظيماً كهذا.

إن اعتبارهم إياه - عليه الصلاة والسلام - ((صادقاً)) أو ((أميناً)) لم يكن ليسلبهم قناعتهم النفسية القائلة بأنه بشر كما نحن جميعاً بشر، غير أن الاعتراف له بأن الله قد أجرى كلامه على لسانه كان مرادفاً لرفعه إلى مستوىً فوق أنفسهم، وهذا النوع من الاعتراف من أصعب الأمور وأشقها على الإنسان.

إن الله لا يتجلى بذاته المقدسة مباشرةً في العالم الحاضر، إنما يظهر أمام الإنسان بشكل دلائل وآياتٍ، لذا فإنكار دلائل الحق، أو التغاضي عن الآيات المؤيدة له، بمثابة إنكار الله وصرف النظر عن وجهه - تبارك وتعالى، على أن هذه السنة الإلهية ثابتةً دون تغيير، فلا يمكن أن يفاجئ الله بالظهور عياناً، مع خوارق معجزات إجبارية قاهرةٍ لردع الإنسان عن عناده الآخذ في الاشتداد وتمرده البالغ منتهاه! إذْ لو عُرضت الدعوة في ظل معجزاتٍ إجبارية قاهرةٍ، لانعدمت حرية الاختيار بينما لابد للامتحان من توافر جو الاختيار الحرّ. وينبغي للداعي ألا يقع فريسة الحزن والهم، نظراً لانحصار طاقته كلها في إطار الدلائل والبراهين القاطعة وحدها، وعدم امتلاكه لقوى تسخيرية، إنما يجب على الداعي أن يلجأ إلى الصبر ويستمسك به، بدل أن يشغل باله بالتفكير الباعث

---

(١) البحر المحيط ٤/ ١١٢.

على القلق وانقباض النفس .

إن كفاح الدعوة إلى الحق يكون اختباراً لصبر الداعي، وامتحاناً للمخاطبين، أن يدركوا عظمة الكلام الإلهي وسموّه في كلامٍ خرج - في ظاهر الأمر - من فم إنسانٍ، وأن يخضعوا أمام دلائل تخلو من كل قوةٍ أو ثقلٍ مادي، تماماً كما سيخضعون في اليوم الآخر أمام الله العزيز الجبار؟!!

الكون كله يزخر بما لا يُحصى من الآيات ودلائل قدرة الخالق العظيم وحكمته البالغة، ولكن للأحياء وحدهم، وأما الذين ماتت ضمائرهم، وتبلدت أحاسيسهم، فلن يتلقوا الدرس أو العبرة، سوى بزلزال القيامة الرهيب!

﴿ وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾ ﴾

أُمَمٌ أَمْثَالُكُم: في خلقنا لها وتدبيرنا أمورها .

ما فَرَّطْنَا: ما أغفلنا وتركنا .

فِي الظُّلُمَاتِ: ظلمات الجهل والعناد والكفر .

المعاني التي اشتملت عليها هذه الآيات أنهم يقولون : هلاّ أُنزلت على الرسول بعض الآيات الخارقة للعادة ؛ تشهد بصدق رسالته ! أما أن الله لقادر على إنزال الآيات والخوارق على اختلاف أنواعها، غير أن المسألة ليست في الآية ؛ إنما في جهل الناس، فإن هناك ما لا يُعد ولا يُحصى من آياتٍ جليلةٍ باهرةٍ، وهي منبثة في أرجاء الوجود كله ؛ والناس في غفلةٍ عنها ؛ لا يستفيدون منها ؛ ولا يتلقّون منها أية عبرة ؛ إذن فهل من

فائدةٍ تُرجى وراء إنزال آيةٍ أخرى جديدةٍ؟!

أليست هذه القطعان المشتملة على أصناف شتى من الحيوانات والبهائم التي تغدو وتروح على ظهر الأرض، وهذه الأسراب من الطيور والعصافير المختلفة الألوان والأشكال المرفرفة بأجنحتها في طبقات الجو، أليست كلها بمثابة آياتٍ ومعجزاتٍ تدعوكم إلى إعمال التفكير والتأمل في قدرة خالقها اللاّنهائية، وعظمة شأنه وبالغ حكمته، أجل ! إنها لكذلك، وإن ما يطلبه الله تعالى منكم هو اتباع سبيل الله رب العالمين، وقد سجّل الله لكل في كتابٍ ما هو مطلوب منه للإنسان على وجه الشريعة، وللمخلوقات الأخرى سواه على وجه الجبلة والغريزة، إن المخلوقات، كالطيور والحيوانات، ملتزمة تمام الالتزام بما كتب الله لها، دون أن تحيد عنه، ولكن الإنسان لا يكاد يرضى للالتزام بكتاب الله، ومن ثم فهذه ليست القضية الآية، بل هي قضية العمى وفقدان البصيرة، إذْ ما هو المسوغ الذي يسمح للإنسان باختيار دين غير الدين الذي اختارته بقية المخلوقات برمتها ؟! الحقيقة أن العاملين حقاً يعملون ما هو مطلوب منهم بدون اقتراح للآية أو المطالبة بها، أما غير العاملين فيطالبون بالآيات ، وهي محيطة بهم من كل صوبٍ، وما عقبة أمثال هؤلاء سوى حشرهم جميعاً يوم القيامة، يبين لهم جلياً، على صعيد الواقع المحسوس، كيف أن سائر أصناف الحيوانات كانت تسلك طريق الله ربّها، أخذاً بمنهج الواقعية، وأن الإنسان وحده قد ظل منحرفاً عن ذلك بغياً وعناداً، وعالم الحيوانات عالم مطابق للفطرة تمام المطابقة، فنلاحظ عندها بحثاً عن الرزق وسعياً وراء توصيله، ولكن لا نرى مظاهر السلب والنهب والظلم والاغتصاب، ولديها شعور بالاحتياج ودواعي الضرورة، ولكنها تجهل معنى الحرص والأثرة، وتوجد بينها علاقات متبادلة، غير أنها لا تدري سياسة الوقيعة والسعاية، ونلمس فيها تفاوتاً في القوة، والجمال، والمظهر الجسدي.. إلخ، إلا أنها غير عارفة بمشاعر سلبية كالحقد والغرور والتعاظم، ويقع بينها الاحتكاك وتأذي بعضهم ببعض ولكن من غير أن يورث ذلك العداوة والبغضاء ويوغر الصدور، وهي دائبة في تأدية

وظائفها وإنجاز أعمالها - ولكن لا يميل أي منها إلى نيل الشرف أو ادعاء الفضل والرفعة.

إنما الإنسان هو الكائن الوحيد الذي يتجه إلى ممارسة البغي والطغيان، وقلما يرضى بإخضاع نفسه للخريطة الإلهية، والشيء الذي فُرض على الإنسان إتيانه، هو الشيء عينه الذي تأتيه الحيوانات الأخرى سواه بكامل الخضوع والاستسلام، إذن فأية حاجة إلى طلب المعجزة لذلك، أليست هذه الآيات المتحركة المتمثلة في صورة الحيوانات الغادية الرائحة تكفي للإنسان عبرة ودرساً ؛ والتي تقدم نموذجاً حياً للمنهاج الإلهي العالمي ؛ وهكذا تشهد بدورها - شهادة عملية واقعيةً - بكون تعاليم الرسول حقةً وصادقةً !!؟

﴿ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾ ﴾

أَرَأَيْتَكُمْ: أخبروني عن عجيب أمركم .

كان عكرمة بن أبي جهلٍ من ألدّ أعداء الإسلام، وقد ظل يحارب الإسلام وأهله إلى فتح مكة، وحتى في يوم الفتح أيضاً رمى أحد المسلمين بسهمٍ فمات، وهو من جملة الذين أمر الرسول يوم الفتح بأن يُقتلوا حيثما وُجدوا.

وفي أعقاب فتح مكة، فرّ عكرمة هارباً منها إلى جُدّة، وأراد أن يركب سفينةً تعبر به البحر الأحمر ويصل إلى بلاد الحبشة، ولكن السفينة لم تكد تنطلق حتى أُحيطت برياحٍ عاصفةٍ هوجاء، وأوشكت أن تغرق، وركاب السفينة كانوا مشركين ؛ فأخذوا في المناداة بأسماء اللاّت والعزى وغيرهما من أصنامهم ؛ طلباً للغوث والنجدة، غير أن الطوفان اشتد فاستيقن الركاب أن السفينة ستغرق بهم، وعندئذٍ قال أصحاب السفينة

بعضهم لبعضٍ : إنه لن يغني عنكم الآن إلا أن تدعوا الله وحده، فطفق الجميع يدعون الله الواحد الأحد بضراعةٍ وخشوع، وما هو إلا قليل حتى هدأ الطوفان، وعادت السفينة إلى شاطئ البحر بسلام.

وقد كان لهذا الحادث أثره العميق في نفس عكرمة، فقال : والله، إن كان لا ينفع في البحر غيره فإنه لا ينفع في البر غيره، اللهم لك عليَّ عهد، إن عافيتني مما أنا فيه، أن آتي محمداً حتى أضع يدي في يده، فلأجدنه عفوّاً غفوراً كريماً (رواه أبو داود والنسائي) .

ولقد شهد التاريخ البشري بأكمله أن الإنسان، حتى لو كان معتمداً على آلهةٍ أخرى غير الله أو ملحداً لا يؤمن بوجود الله إطلاقاً، ما دامت حياته تسير سيرها الطبيعي المعتاد، إذا ما مرّ بلحظاتٍ حرجة خطيرة، فلا يلبث أن يبتهل إلى الله الواحد الأحد سائلاً عونه ونصرته، وإنها لشهادة فطرية على وجود الله وكونه وحده قادراً مطلقاً من غير ندٍ ولا شريكٍ.

فالظروف غير العادية، تزيح كل الحجب الظاهرية عن عين الإنسان جملةً واحدةً، وتمحو من ذهنه كل الأفكار والخيالات الاصطناعية المزيفة، فلا يعود المرء يذكر في ظل تلك الظروف، غير الله الواحد الأحد.

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾

بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ: البؤس والفقر ، والسقم والزمانة .

يَتَضَرَّعُونَ: يتذللون ويخشعون ويتوبون .

جَاءَهُم بَأْسُنَا: أتاهم عذابنا .

كُلِّ شَيْءٍ: من النعم والكثرة استدراجا لهم .

أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً: أنزلنا بهم العذاب فجأة.

هُم مبْلِسُونَ: آيسون من الرحمة أو مكتئبون فيها .

دَابِرُ القَوْمِ: آخرهم .

إن الله لا يؤاخذ المرء مؤاخذةً فورية عاجلةً إذا رفض الإيمان بحقٍ ظهر أمامه بغايةٍ من الوضوح والجلاء، بل يُصيبه ببعض الصدمات المتمثلة في صورة خسائر مالية وبدنية، حتى تستيقظ قواه الفكرية والتأملية ؛ فيتناول موقفه تجاه الحق بالمراجعة وإعادة النظر فيه، إن حوادث الحياة ليست حوادث محضةً لا مغزى لها، إنها رسائل محسوسة يبعث بها الله لتوقظ الإنسان الغافل من رقدته، غير أن المرء طالما يمر بها مروراً عابراً سريعاً دون أن يستلهم منها درساً أو موعظةً، فلا يلبث أن يُطَمئِن نفسه ويُهَدئ خاطره قائلاً بأنها لا تعدو أن تكون صروف الزمن وتقلبات الأيام .

وهكذا في كل مناسبةٍ، يصرف الشيطان ذهن المرء إلى اتجاه الغفلة بدلا من العبرة ؛ خادعاً إياه بالتعليلات والتفسيرات الجميلة الخلابة، وبقدر ما أصر المرء على هذا الصنيع، وظل يعيده مرةً بعد أخرى، بقدر ما أخذت حساسيته الداخلية بالنسبة للحق والباطل والصواب تموت وتنعدم تلقائياً، إلى أن يُصاب قلبه بالقسوة والجمود والتحجر، وإذا المرء أعرض عن التحذيرات الإلهية، ولم ينتبه من غفوته، فإن الله يعامله بأسلوبٍ آخر، فيفتح عليه أبواب الرخاء والسعادة، ويمطر عليه ألوان النعيم والهناءة، ويكتب له مزيداً من العزّ، وسعة النفوذ، وإنها - في الحقيقة - عقوبة في ثوب النعمة، والغاية أن يتم استجلاء دخائل نفس المرء إلى أقصى حدٍ، إذْ إن اغترار المرء بتلك الأشياء واطمئنانه إليها، مما يزيده قسوةً على قسوةٍ، وإصراراً على رفض الحق والإعراض عنه، وهكذا يتأكد استحقاقه لعقاب الله تمام التأكد، وحين تتحقق هذه

الغاية، يهبط عليه العذاب الإلهي فجأةً، وتطوي صحيفة حياته الدنيوية طياً، ويساق إلى محكمة الآخرة، حتى يحكم عليه بالخلود في نار جهنم جزاءً على عناده وطغيانه.

إن هذا العالم هو عالم الله، ولا أحد يستحق هنا أي نوعٍ من الكبرياء والحمد والثناء سوى الذات الإلهية الواحدة، ومن ثم فإن أحد الناس إذْ يُعرض عن حقٍ جاء من عند الله، فإنه ليستهين بقدر الله، إنه شخص يريد أن يقيم صرح عظمته الذاتية في عالمٍ يزخر بروائع عظمة الله - جل وعلا، وإنه إذْ يفعل، يرتكب ظلماً دونه كل ظلمٍ. إنه يتمرد على الله الذي لا يجوز لأحدٍ أن يتخذ إزاءه موقفاً غير موقف العجز .

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَـٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَۖ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٤٩﴾ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾

أَرَأَيْتُمْ: أخبروني .

نُصَرِّفُ الآيَاتِ: نكررها على أنحاء مختلفة .

هُمْ يَصْدِفُونَ: هم يعرضون عنها ويعدلون.

أَرَأَيْتَكُمْ: أخبروني .

بَغْتَةً: فجاءة أو ليلا .

جَهْرَةً: معينة أو نهارا .

خَزَائِنُ اللهِ: مرزوقاته أو مقدوراته .

تزويد المرء بقوى ومقدراتٍ، كالسمع والبصر والقلب، يوضح مراد خالقه منه، إن الخالق يريد أن يستمع المرء إلى الكلام الحق، ويراه، ثم يؤمن به اقتناعاً بما يصحبه من دليلٍ عقلي لا يُردّ. ولو أن المرء لم يوظف هذه المواهب الإلهية الجليلة في تحقيق الغاية المبتغاة منها، فكأنما يعرض نفسه لخطر أن تُسلب باعتباره غير مستحقٍ لها. وإنه لا أحد أشد تعاسةً وحرماناً ممن سُلب هذه النعم، فجُعل أعمى وأصم وأبله !! ؛ لأن رجلاً كهذا يبقى ذليلاً مهاناً تافهاً لا قيمة لوجوده في هذه الدنيا.

ثم إن الحرمان الأكبر من ذلك هو أن يكون للمرء في ظاهر الأمر أذنان، إلا إنهما أصيبتا بالصمم عن سماع الحق، وله عينان، ولكنهما عمياوتان عن رؤية الحق، وأن يكون بين جنبيه قلب ينبض، غير أنه خلْو من الاستعداد لتفهم الحق كل الخلو.

إن هذا النوع من السلب أخطر بكثير من النوع الأول، ذلك لأنه يجعل المرء ذليلاً تافهاً غر ذي قيمةٍ وأهميةٍ باعتبار الآخرة، والرجل العنيد إذا ما وجهه إليه نذير أو تحذير من العاقبة الوخيمة التي سيلقاها نتيجة إنكاره للحق، فإنه يرد رداً غليظاً يدل على عدم اكتراثه بالعواقب، ومرجع ذلك إلى زعمه القائل- نظراً لاستقرار حاله واستقامة الأمور له في الحياة الدنيا: إنه في مأمنٍ من خطر عقاب الله ومؤاخذته، والذين توغلوا في التمرد والعناد أكثر، طالما يتحدون الداعي إلى الحق قائلين : «ائتنا بما تعدنا من العذاب إن كنت من الصادقين» ! ولا يفقه أولئك المساكين أن عذاب الله حين يأتي، فإنما يقع عليهم أنفسهم، وليس على أحدٍ سواهم، إن داعي الله منذر ومبشر، وذلك يعني أن اختبار الله للمرء أن يعرف المرء الحق بلغة الإعلام والإنذار، ثم يقوم بإصلاح نفسه وعمله في ضوئه. ولو لم يعرف الحق بلغة الإعلام، وشرع في المطالبة بأنواع الخوارق والعجائب كشرطٍ للإيمان به، فيثبت أنه أعمى، وليس للعُميان في دنيا الله عاقبة غير التخبط في متاهة الضلال المفضي بهم إلى الضياع!

﴿ وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾

بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ: في أول النهار وآخره أي دواما .

فَتَنَّا: ابتلينا وامتحنا ونحن أعلم بهم .

إن الموعظة تترك أثرها الإيجابي المرجوّ على أولئك الذين يعيشون في نفسية الخوف والرهبة، فالمتوقع شيئاً في كل حينٍ وبحذرٍ بالغٍ، هو الذي يُرجى تنبيهه إلى خطره الزاحف ، وعلى العكس فالذين يعيشون في نفسية عدم الخوف، لا يأخذون الموعظة الموجهة إليهم مأخذ الجد أبداً، وبالتالي فهم لا يكادون يقبلونها، مهما كانت بليغة ومؤثرةً .

ونفسية عدم الخوف تنشأ بسببين : أحدهما: حب الدنيا الزائد، والآخر : عبادة الأكابر والصالحين، فالذين انغمسوا في متاع الدنيا ومباهجها، أو امتلأ كيانهم غبطةً وسروراً واطمئناناً بنجاحٍ دنيويٍ فازوا به، حتى لا يعود الآن يخطر على بالهم أبداً أنهم سيُتوفون يوماً ما، وسيحضرون بعدئذٍ أمام خالقهم ومالكهم للحساب الشديد، إن أمثال هؤلاء لا يعدّون الآخرة موضوعاً يجدر بشيء من الاهتمام؛ ولذا فإن التذكير بأهوال اليوم الآخر قلّما يجد له مكاناً في أذهانهم، ولا تلبث أذْواقهم وأمزجتهم أن تمج هذه المواعظ لاعتبارها تافهةً وغير ذات أهميةٍ يُعتدّ بها !

أما الصنف الثاني من الناس، فهم الذين يعدّون قضية الآخرة قضية الشفاعات والوساطات، فيزعمون، أن أكابرهم وشيوخهم سيكونون في الآخرة أعواناً وشفعاء

لهم، ومدار ثقة هؤلاء الناس في الحياة الدنيا وبعد الممات على أنهم مستمسكون بأذيال الشخصيات المقدسة، فانضّموا إلى طائفة أصفياء الله وأوليائه، ومن ثم فلا شيء يُلحق بهم ضرراً أو يهدد مصيرهم ومستقبلهم، وهذه النفسية تجردهم من خوف الآخرة، ولا تدعهم يتأملون بجديةٍ وإخلاص في حديث يلغى امتيازاتهم المزعومة في الآخرة.

والذين أتاحت لهم الأقدار أن يحصلوا على ثرواتٍ طائلةٍ، ويحظوا بسمعةٍ عريضة، بناءً على سياسة انتهاز الفرص ورعاية المصالح، يستحيل عليهم أن يناصروا الدعوة إلى الحق الخالص ويقفوا إلى جانبها؛ لأن الوقوف إلى جانب الحق يكون بمثابة تحطيمٍ لبنيان مصالحهم ومنافعهم، وحين يرون أن معظم أنصار الحق المجتمعين حوله،ليسوا إلا من أراذل الناس،فيصير الوضع بالنسبة إليهم فتنةً وبلاءً أعظم إلى حدٍ كبيرٍ،إذ يخيل إليهم أن وقوفهم إلى جانبه سيحطّ من شأنهم ويضع من علو منزلتهم، إنهم ينظرون إلى الحق من خلال منظارهم الذاتي ، بدلاً من أن ينظروا إلى الحق نفسه؛وإذا وجدوه لا يتفق ومع هواهم فيرفضونه رفضاً باتاً.

﴿ وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِنَا فَقُلْ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَـٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾

كَتَبَ رَبُّكُمْ: قضى وأوجب ـ تفضلا وإحسانًا.

بِجَهَالَةٍ: بسفاهة وكل عاص مسيء جاهل .

كان الناس في زمن رسول الله ﷺ قد انقسموا إلى نوعين : النوع الأول : الذي ظل يطالب بالمعجزات والخوارق الشاهدة على صحة رسالته وصدق دعواه ، أما النوع الثاني : فهو الذي لم يكد يستمع إلى الآيات القرآنية، حتى بادر بالإيمان به، وبهذا الاختبار نفسه يمرّ البشر ولا يزالون في كل زمان. إن الله – جل شأنه – لا يتجلى بذاته

المقدسة عياناً ومباشرةً في العالم الراهن. إنما يُعلن عن دلائله على لسان الداعي، ويقدم صدقه إلى الإنسان ، بعد صياغته في صورة كلمات يألفها ويفهمها الإنسان. والآن فكل من بقيت فطرته حية وسليمةً يرى في هذه الدلائل ذاتها تجليةً لله ، فيُسرع تلقائياً إلى الإقرار بها وإخضاع نفسه لها .

وعلى العكس من ذلك، فإن الذين اندمجت فطرتهم تحت حجب اصطناعية كثيفةٍ، لا يُوفّقون لإدراك الله في صورة «الكلمات»، وبسبب عدم تمكنهم من رؤية الله في شكله الاستدلالي يودون لو أن الله يظهر أمامهم بشكله الشهودي - المباشر - غير أن هذا مستحيل في عالم الامتحان الحاضر.

إنما يظفر بالله مَن تمكّن من الظفر به في حالة الغيب، وأما الشخص الذي يأبى إلا أن يرى الله في حالة الشهود، فإنه لن يظفر في دنيا الله بشيء سوى الحرمان ، وقد جرت عادة المجانيين للحق، لأجل زيغٍ في قلوبهم، وانطماس فطرهم، أن يلصقوا بالمعتنقين للحق ألواناً من التهم، حتى يُثبتوا أنهم أعلى منهم، وهم يتجاهلون جرائمهم على كثرتها وشناعتها، اللهم إلا إذا وقع أتباع الحق يوماً في خطأٍ أو خطيئةٍ ما، تناولوها بالتضخيم والمبالغة في وصفها، حتى يبدوا للناس أن المناصرين لهذه الدعوة رجال «مشبوهون» لا يوثق بهم ولا يصح الاعتماد عليهم، في حين أن العكس هو الصحيح، فالذين نبذوا الباطل، وانضووا تحت لواء الحق، أثبتوا بعملهم ذاك أنهم سالكو طريق الإيمان والرشاد، وهكذا صاروا مستحقين، بموجب القانون الإلهي، أن يحالفهم التوفيق لإصلاح شأنهم، وأن ينالوا نصيبهم من رحمات الله تعالى.

وأما الذين ظلوا بعيدين عن الحق فإنهم يثبتون بعملهم أن قلوبهم خالية من أية رغبةٍ في الاتجاه نحو طريق الإيمان والإصلاح، وسيبقى هؤلاء محرومين من توفيق الله، لأن عنادهم مستمر لا يقف عند حدٍ ، والعناد أكبر جريمةٍ يرتكبها أحد في دنيا الله هذه.

إن الله يتحدث بلغة «الآيات»، وإن الآيات تحتاج شخصاً يدرسها ويتأمل فيها، وهكذا لا يظفر بالهداية إلا طالبها ؛ والشخص الذي لا يطلب الهداية، فلا عاقبة له في دنيا الله هذه سوى التيه والضلال .

﴿ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ۚ قُل لَّا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ ۙ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِ ۚ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ ۚ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ يَقُصُّ الْحَقَّ ۖ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ ﴿٥٧﴾ قُل لَّوْ أَنَّ عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۗ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ ﴿٥٨﴾ ۞ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾ ﴾

يَقُصُّ الحَقَّ: يتبعه فيما يحكم به أو يبينه بيانا شافيا .

خَيْرُ الفَاصِلِينَ: بين الحق والباطل بحكمه وعدله .

كِتَابٍ مُّبِينٍ: اللوح المحفوظ أو علمه تعالى.

إن كل شيء يرفعه المرء إلى مقام الإله أو المعبود من دون الله، يكون هوى قد توهمه حقيقةً واقعةً، فمن أجل التخلص من العاقبة الوخيمة لقصوره العملي ربما يظن أحد الناس «مقرباً» إلى الله ليكون ولياً وشفيعاً له عند الله تعالى. وقد يعتقد في شخصيةٍ من الشخصيات وجود عظمةٍ طلسميةٍ ليتمكن من خلال انتمائه إليها من إزالة ما يشعر به من الصغار والضعة في ذات نفسه، وقد يبعثه التهاون والاستسهال على أن يصطنع لنفسه إلهاً لا يكلفه ثمناً غالياً أو مشقةً كبيرةً، وإنما يمكن أن ينال رضاه بإقامة مظاهر عادية تافهةٍ.

غير أن كل الأشياء من هذا النوع لا تعدو أن تكون افتراضاتٍ، والافتراضات لا تؤدي إلى الحقيقة، على أن غلبة المطامع الرخيصة تجعل المرء فاقد البصر والبصيرة فيتحدى حتى أولئك الذين قد اعتصموا بمالك الكون الحقيقي ووقفوا إلى جانبه، فيقول : لو أن الكبرياء والعظمة ليست لله الواحد الأحد الذي تدعون التمثيل عنه ؛ فاستنزلوا على العُصاة أمثالنا عذاباً شديداً؟!! وتصل الجرأة إلى هذا الحد لما يرون أن لديهم من الأسباب والمباهج الدنيوية ما لا يتوفّر لدى دعاة التوحيد، ويغيب عنهم أنهم إنما حصلوا على هذه الأشياء والمظاهر المادية نتيجة إقبالهم على كسب الدنيا وتقديمهم المصالح على الحق ومقتضياته، وأن دعاة التوحيد حُرموا من هذه الأشياء لإيثارهم الآخرة ونعيمها على الدنيا ومصالحها، إن العالم الحاضر عالم امتحانٍ واختبارٍ، فليست العبرة بالأحوال والظروف المادية التي تكتنف المرء، بل العبرة إذا كان المرء مستنداً إلى دليلٍ حقيقيٍ أو إلى محض افتراضاتٍ وآمالٍ، وإنه لن ينجح إلا المستند إلى دليلٍ، أما القائمون على الافتراضات، فإن العاقبة الوحيدة المحتومة التي سيلقونها أن يصيروا في دنيا الله محرومين من كل سندٍ ومن كل معينٍ ، فالعالم الذي يخضع نظامه لقوانين صارمةٍ ثابتةٍ، كيف يمكن أن يكون مصيره النهائي خاضعاً للأماني والآمال الجميلة ؟!

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۚ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ﴿٦٢﴾ ﴾

جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ: كسبتم فيه بجوارحكم من الإثم.

لَا يُفَرِّطُونَ: لا يتوانون، أو لا يقصرون .

لقد خلق الله هذا الكون وأصبح تصديقاً عملياً لتلك الحقائق التي يُدعى إليها الإنسان، ولو أن المرء عاش مفتوح العينين، ولم يدس عقله تحت حجبٍ مصطنعةٍ، لظهر له الكون إظهاراً عملياً لدعوة القرآن الفكرية.

إن ساق الشجرة تتشعب عنه الأغصان، ومن الأغصان تخرج الورقات، ولكن يوجد فرق ملحوظ بين أصولها، كأنما الصانع على سابق علمٍ ودرايةٍ بأن الأغصان ملزمة بالبقاء الدائم مع ساقها، بينما قدر للورقات وقت لابد لها فيه أن تنفصل عن أصولها وتسقط ، وإنه لو لم يكن أصل الورقة يتميز عن أصل الغصن بهذه الخصيصة لما انفصلت الورقة عن غصونها أبداً، ولاختل بذلك نظام تجديد حياة الشجرة وحيويتها على مدار كل سنةٍ، وهكذا حين تلقى حبة في الأرض، فتجد في داخلها كل العناصر الحياتية الضرورية متوافرة، لتستمد منها غذائها فتنمو وتتحول إلى شجرةٍ كاملةٍ، فكيف يمكن أن يكون غافلاً عن أحوال البشر ذلك الإله الذي يحيط علمه حتى بأحوال ورقة ساقطةٍ من غصنها وحبةٍ مخبوءة في جوف الأرض؟! ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ۝١٤﴾ [الملك : ١٤]؟! (١).

إن أرضنا حادث فذّ في الكون، فقد جُعل نظامها، على نحوٍ استثنائي، ملائماً لحياة مخلوقٍ كالإنسان، إن معظم أجزاء باطن الأرض نيران ملتهبة ؛ ولكنها لا تنفجر فتنقلب الأرض تنوراً رهيباً، والشمس تبعد عن الأرض مسافة رياضية متناسبة للغاية، وهذه المسافة دائمة ؛ لا تتغير أبداً بزيادةٍ أو نقصانٍ، وإذا كان لابد للإنسان من الماء والهواء، فتوفير الهواء بشكل مركبٍ من الغازات معين ينتشر في كل مكانٍ، ووُضع الماء في صورة سائل رقيقٍ تحت الأرض، وهناك أسباب لا حصر لها يتم الإبقاء عليها في الأرض بصفةٍ مستمرة، ولو أن هذا النظام طرأ عليه يوماً تغير بسيط لاستحالت الحياة البشرية فوق الأرض، والنوم شيء غريب جداً، فالمرء يغدو ويروح، وهو يبصر

---

(١) تراجع الآية السابقة رقم ٥٩ .

ويتكلم، ولكنه حين ينام حتى تتعطل حواسه كما لو أن الحياة فارقته، وحين يستيقظ من نومه يكون إنساناً مثلما كان من ذي قبل، وكأنما النوم واليقظة يمثلان الموت والحياة، فإن ذلك يقرب إلى أفهامنا كيف أن المرء سيموت يوماً وكيف أنه سوف يُبعث حياً تارةً أخرى ؟! وهذه الوقائع تثبت أن جميع البشر بيد الله لا قبل لهم بإزاء قدرته وقهره وجبروته، وأنه سرعان ما ستأتي الساعة التي سيحكم فيها الله بينهم كما يشاء ، ﴿ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ﴿٦٢﴾ ﴾!!.

﴿ قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ ۚ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿٦٦﴾ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ ۚ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾

تَضَرُّعاً: معلنين الضراعة والتذلل له.

وَخُفْيَةً: مسرين بالدعاء .

يَلْبِسَكُمْ: يخلطكم . في ملاحم القتال .

شِيَعاً: فرقا مختلفة الأهواء .

بَأْسَ بَعْضٍ: شدة بعض في القتال .

نُصَرِّفُ الآيَاتِ: نكررها بأساليب مختلفة.

بِوَكِيلٍ: بحفيظ وكيل إلى أمركم .

إن الإنسان يتعرض في هذه الدنيا لمصائب لا يتعرض لمثلها أي مخلوق آخر،

ويحدث هذا لتطرأ على المرء أحوال تطهر داخله من كل الأفكار والخيالات الزائفة، فيتمكن بالتالي من أن ينظر إلى فطرته على هيئتها الأصلية، ومن ثم فكلما نزلت بالمرء نازلة أو محنة قاسية دعا الله وحده في ضراعةٍ وإخلاصٍ، وإذا بكل الحجب الاصطناعية المتراكمة على ذهنه لا تلبث أن تتمزق تلقائياً، وإذا به يعلم علم اليقين أن الإنسان هو العجز كله، وأن القدرة كلها لله الواحد الأحد، لكنه ما تنقشع غيوم المحنة حتى يقع الإنسان ثانيةً فريسة الغفلة ويعود إلى سيرته التي كان عليها !!

أصل الشرك هو الاعتماد على شيء آخر من دون الله، أما التوحيد فهو أن يكون اعتماد المرء كله على الله تعالى وحده ، ومن صور الشرك ما نراه عادةً من عبادة الأصنام وغيرها من مظاهر الألوهية الباطلة ، غير أن من الشرك أيضاً أن يكفر المرء بنعم الله بدلاً من الشكر عليها، وأكثر صور الشرك شيوعاً أن يكون المرء قد اتخذ من نفسه صنماً يعبده ؛ ويعتمد على نفسه الاعتماد كله، وحين يمشي المرء على الأرض مختالاً ومتبختراً ؛ فكأنما يعتمد على قواه البدنية، ويعدّ ماله ملكاً لنفسه فكأنما يضع ثقته في مؤهلاته الذاتية، ويُهمل حق أحد الناس أو يغتصبه قهراً فكأنما يقول: إنني مهما أفعل مع الآخرين لن يقدر أحد علي أن يمسني بسوء، وإذْ يظلم أحداً أو يعتدي عليه، فكأنما تحدثه نفسه إذْ ذاك أو يحدث نفسه قائلاً : إنني قادر عليه تمام القدرة، ولا أحد يستطيع أن يمنعني من التصرف في حقه كما أشاء.

كل هذه الصور وأمثالها صور الكبر، وإن الكبر لهو أعظم أنواع الشرك وأشدها شناعةً عند الله – سبحانه وتعالى ؛ لأنه يعني أن يرفع المرء نفسه إلى مقام الله – جل جلاله. ولو تأمل المرء في حقيقة وضعه لامتنع عن التكبر والغرور، فهو محاط برياحٍ عساها أن تنقلب في أي وقتٍ عاصفة هوجاء تدمر حياته تدميراً، وهو قائم على ظهر أرضٍ يمكن أن تنفجر في أية لحظةٍ عن زلزال يجعل عاليها سافلها، ومجتمعه الذي يعيش فيه لا يزال يزخر كل حين بعداوات لدرجة أن شرارةً واحدةً منها تكفي لإحالة المجتمع بأكمله إلى مذبحة بشرية !

﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَـٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَلَـٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٦٩﴾ وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ ۗ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُوا۟ بِمَا كَسَبُوا۟ ۖ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾

يَخُوضُونَ: يأخذون في الاستهزاء .

وَغَرَّتْهُمُ: خدعتهم وأطمعتهم بالباطل .

أَن تُبْسَلَ نَفْسٌ: لئلا تحبس في النار أو تسلم للهلكة .

تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ: تفتد بكل فداء .

أُبْسِلُوا: حبسوا في النار أو أسلموا للهلكة .

حَمِيمٍ: ماء بالغ نهاية الحرارة .

رُوي عن عبد الله بن عباسٍ رضى الله عنهما ما معناه أن الله جعل لكل قومٍ عيداً يعظمونه ويصلون فيه ويعمرونه بذكر الله تعالى، ولكن كل قومٍ اتخذوا عيدهم لعباً ولهواً. إن لكل عملٍ ديني هدفاً معيناً، وله جانب ظاهري، وهدف العيد هو المظاهرة الجماعية لذكر الله تعالى و تكبيره وتعظيمه، غير أن الاحتفال بالعيد يتطلب مراعاة بعض الجوانب الظاهرية كارتداد الملابس النظيفة أو تهيئة أسباب الاجتماع، أما اتخاذ العيد لهواً ولعباً فبإهمال هدفه الأصيل فلا يُعار أي اهتمامٍ، بينما تقام الدنيا وتقعد لتوفيته جوانبه الظاهرية حقها من العناية والاهتمام، مثل التكاثر والتباهي بأنواع الملابس

والأمتعة، والتهالك على البيع والشراء، والعناية البالغة بالترفيه على النفس بألوان التسلية والمتع والنزهات والاستباق إلى التفاخر بمظاهر الجاه والأبهة... إلخ.

وهكذا يكون شأن الأعمال الدينية في زمن فساد الأمم وانحطاطها دينياً، حيث يأخذ الناس قشر العمل الديني ويدعون لبه ؛ يبالغون في الاهتمام بجانبه الشكلي الظاهري نابذين حقيقته الجوهرية، وإذا وصل الأمر بقومٍ إلى هذا الحد ؛ فيثبتون بعملهم هذا أنهم لم يعودوا جادّين في أمر الدين ؛ والذين لا يكونون جادين في أمرٍ من الأمور فإن من المستحيل أن تقنعهم بشيء لا يوافق مزاجهم، وزدْ على ذلك أن امتلاكهم للأشياء المادية يوقعهم في سوء فهمٍ بأن الحق ملك لهم، وهنا مكمن الداء، فيرون الدنيا مقبلةً عليهم، وحياتهم تجري على خير ما يرام، وتقضي مصالحهم وأغراضهم كأحسن ما ينبغي أن تقضى، ويجدون أنفسهم محط أنظار الناس، مما يجعلهم يظنون أنهم سيكونون في الآخرة كذلك على قمة المجد و السعادة والنجاح، وتلك نفسية إذا غلبت على أناسٍ فإنهم لا يكادون يأخذون قضايا الآخرة مأخذ الجد بطبيعة الحال، ولكن عليهم أن يعلموا جيداً أن كل ما يفعلونه لن يُهمل أو ينتهي بدون أية نتيجةٍ، فأعمالهم تلاحقهم وتحاصرهم من كل وجهةٍ، وعما قريبٍ سيقعون في الهاوية لقاء طغيانهم وعنادهم، ولن يجدوا أبداً إلى الخروج منها من سبيل!

﴿ قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَأَنْ أَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ ۚ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ ۚ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ ۚ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٧٣﴾ ۞ وَإِذْ قَالَ

إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً ۖ إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾

اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ: هوت به فأضلته .

وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ: أُمرنا بأن نسلم ونخلص العبادة .

الصُّورِ: القرن الذي ينفخ فيه إسرافيل .

آزَرَ: لقب والد إبراهيم ، أو اسم عمه .

إن من يبني حياته على دعامةٍ أو سندٍ من دون الله تعالى، كمسافرٍ يتيه في صحراء بدون معالم، بيد أن المسافر التائه في الصحراء سرعان ما يدرك أنه قد ضل الطريق، فحين يهتدي إلى طريقه ثانية يعود إليه مسرعاً ويستأنف المسير، ولكن الذي يعتمد في حياته على أي سندٍ آخر – غير الله تعالى – فإنه يبقى في عمى عن أمر ضلاله وانحرافه عن الطريق. إن المنادين من حوله ينادون : هلم إلينا، ها هي ذي المحجة، فلا يُلقي لمثل هذه الأصوات بالاً. ومرجع هذا الفرق بين الحالتين أن الرجل التائه في الحالة الأولى حين يضل طريقه فإن نوافذ عقله لا تزال مفتوحةً ؛ ولذا فلا يعوقه عائق عن رؤية الطريق الصحيح والعودة السريعة إليه. أما في الحالة الثانية فإن الشيطان يستبدّ بعقل الرجل المنحرف ويستهويه، فلا يعمل تفكيره وفق أسلوبه الفطري السديد، مما يجعله يسمع ولا يعي ويُبصر ولا يرى شيئاً !!

إن طالب أشياء من دون الله هو طالب أشياء لا تملك ضراً ولا نفعاً في هذا العالم ؛ فالسموات والأرض وما بينهما من ظواهر عجيبةٍ وأنظمةٍ محكمةٍ رائعةٍ تنفي نفياً باتاً أن يكون هناك وجود يملك أي نوعٍ من القدرة غير الذات الإلهية الواحدة.

وهكذا فإن المباهج الدنيوية التي يتخذ منها المرء هدفه ومقصوده في الحياة، في سبيل الحصول عليها يدوس مقتضيات الحق والعدل، هي باطلة كل البطلان، فإن الحياة الإنسانية لو انتهت بما هي عليه من ظلمٍ واعتداءٍ من غير أن يتم إنصاف المظلوم

المعتدي عليه من الظالم المعتدي، لو انتهت الحياة الإنسانية بهذا الشكل ؛ لكان معنى ذلك أن هذه الدنيا خُلقت عبثاً، وأنها مسرح للأنانيين والنفعيين، على حين أن نظام الكون يُرينا من روائع قدرة خالقٍ عظيم كاملٍ ، ما يحتم علينا أن نستبعد كل الاستبعاد صدور العبث منه، بأن يقيم مسرحاً بلا معنىً ولا هدفٍ من هذا النوع!!

إن وضع الدنيا الحالي مؤقت، وسيأتي يوم يُصدر الله فيه أمره بتحطيم هذا النظام، وبعدئذٍ ستنتهي حرية الإنسان التي يتمتع بها الآن، وسيُكتب النجاح والسعادة حينذاك للذين أسلموا أنفسهم لله في خلال فترة الامتحان ؛ والذين كانوا من المتقين الخاشعين لله بدون أي ضغطٍ خارجي!

﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ رَءَا كَوۡكَبٗاۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلۡقَمَرَ بَازِغٗا قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمۡ يَهۡدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمۡسَ بَازِغَةٗ قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكۡبَرُۖ فَلَمَّآ أَفَلَتۡ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفٗاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٧٩﴾ وَحَآجَّهُۥ قَوۡمُهُۥۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنِۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشۡرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيۡـٔٗاۗ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾

مَلَكُوتَ: مُلْك ، أو آيات أو عجائب .

جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ: ستره بظلامه .

أَفَلَ: غاب وغرب تحت الأفق .

فَطَرَ السَّمَوَاتِ: أوجدها وأنشأها.

حَنِيفاً: مائلا عن الباطل إلى دين الحق .

وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ: خاصموه في التوحيد .

إن قصة سيدنا إبراهيم عليه السلام التى رُويت هنا ليست قصة البحث عن الحق، بل هى قصة مشاهدة الحق، إن سيدنا إبراهيم وُلد قبل أربعة آلاف سنةٍ في العراق في بيئةٍ كانت تُعبد الشمس والقمر والكواكب ، بيد أنه عليه السلام نجا من الشرك وظل بعيداً عنه لسلامة فطرته بعد فضل الله وتوفيقه، وقد كانت عيونه الساهرة لا تزال تبصر دلائل التوحيد من خلال الآيات المنبثة في الوجود، وأينما توجه ببصره في مرآة الكون تراءى له وجه الله الواحد الأحد، ومن ثم كان يأسف أشد الأسف على حال قومه ينبههم على ما هم فيه من ضلال وعمى عن الحق رغم ظهور البراهين الساطعة والحقائق المكشوفة أمام أعينهم.

كان الوقت ليلاً، والظلام سائدًا فى كل مكانٍ، وسيدنا إبراهيم ناظر فى السماء وهي ملأى بالآيات الشاهدة على وحدانية الله ؛ إذْ يمر به كوكب الزهرة يتلألأ، فيخطر على قلبه خاطر - هو خاطر التعجب والاستغراب لا خاطر التساؤل والارتياب والتشكك- فيقول: تُرى، أهذا هو ربي الذي ينبغي لنا أن نتخذه إلهاً نعبده ونخضع له؟! ثم إنه يراه وهو يأفل، فيتحول أفوله عنده إلى دليلٍ شهودى على صحة عقيدته بوحدانية الله، فلا يلبث حتى يصرخ قائلاً: إن الشيء الذي يضيء لساعةٍ من الزمان ثم يدركه الأفول كيف يمكن أن يكون جديراً بالعبادة كلا كلا، وتمر به تجربة مماثلة بالنسبة للقمر والشمس ، فكل منهما يطلع فيثير في نفس الرائى مشاعر الدهشة والاستغراب بنوره لمدة يسيرة من الزمن، ثم يغيب عن الأبصار، وهذه المشاهدات الفلكية أو الكونية التي كانت بالنسبة له عليه السلام تصديقاً صارخاً للتوحيد، هي التي يعرضها على قومه كحجة تؤيد ما يدعوهم إليه وتثبت بطلان ما يعتقدون وما يعبدون من الكواكب والنجوم والأصنام، فيتحدث إليهم بالأسلوب الذي يطلق عليه مصطلح الحجة

الإلزامية، وهو يعني أن تتناول أولاً قول خصمك بحكايته كما هو ثم تقحمه بالحجة الدامغة والدليل القاطع، وقد ورد هذا الأسلوب في مواضع أخرى عديدةٍ من القرآن الكريم، كقوله تعالى: ﴿ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا ﴾ [طه :٩٧].

إن آيات الله المنبثة في هذا الكون تزيد العبد الذي يتأمل فيها إيماناً واطمئناناً إلى صدق ما يؤمن به من وجود الله ووحدانيته... إلخ، ونستمد منها دلائل قويةً لتأييد دعوة الحق وإقناع المدعو بصحتها .

﴿ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾

سُلْطَاناً: حجة وبرهانا

وَلَمْ يَلْبِسُوا: لم يخلطوا.

بِظُلْمٍ: بشرك ، بكفر .

إن شيئاً أو شخصيةً ما حين يتم رفعها إلى درجة الإله ؛ فإن ما يحدث بعد ذلك بطبيعة الحال أن تكتنفها أسرار وتُنسج حولها تصورات غامضة عن العظمة والكبرياء فيستقر في أذهان الناس أنها ذاتٌ تحتل في خارطة الكون مرتبة سنية عالية لا يحتلها الآخرون، وأن أقدارهم تعلو أو تنخفض على حسب نجاحهم أو فشلهم في إرضائها

والتقرب منها. ومن هنا فلما قال سيدنا إبراهيم عليه السلام عن أصنام قومه إنها باطلة، وإنها لا تملك في دنيا الله هذه أي نوعٍ من القوة والاقتدار، أصبح القوم خائفين يترقبون أن هذه الإساءة عسى أن تجرّ وبالاً أي وبالٍ ؛ فإذا بهم يتناقشون مع سيدنا إبراهيم يخوفونه: إنك لئن لم تمسك لسانك عن سب هذه الآلهة فلينزلن عليكُ غضبها .

إنما هي ذات الله وحدها التي تقوم عظمتها في هذا الكون على أساسٍ من الحجة والبرهان، أما ما عداها من العظمة والألوهية على اختلاف أنواعها، فكلها تستمد وجودها من الأوهام والعقائد الخرافية لا غير، إن ألوهية الله قائمة بذاتها، بينما الألوهيات الأخرى إنما تقوم بفضل المعتقدين فيها، فإذا لم يكن هناك من يعتقد في مظاهر الألوهية هذه فلا تلبث أن تتلاشى وتنمحى من على صفحة الوجود تلقائياً.

وعُباد هذه الآلهة الباطلة يغترون بظواهر الأحوال، فيخيل إليهم أنهم في موضع أمانٍ أكبر بالقياس إلى عُبّاد الله الصادقين الذين لا يتمتعون بأسباب حياة آمنةً من المخاوف والهموم والمكدرات، غير أن هذا أسوأ أنواع الخطأ فى الفهم والتقدير. إن المتمتع بالأمان حقاً هو الذى يقوم على أساسٍ من الحجة والبرهان، وأما إذا اصطنع شخص لنفسه مأمناً من خلال التفاهم مع التقاليد الدنيوية الرائجة فإنه لن يغنى عنه شيئاً فيما يتعلق بمصيره النهائى.

﴿ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا

إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٠﴾ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۙ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾

وَاجْتَبَيْنَاهُمْ: اصطفيناهم للنبوة .

لَحِبِطَ: لبطل وسقط .

وَالْحُكْمَ : الفصل بين الناس بالحق أو الحكمة .

اقْتَدِهْ: اقتدِ والهاء للسكت .

وَمَا قَدَرُوا الله: ما عرفوا الله ، أو ما عظموه .

قَرَاطِيسَ: أوراقا مكتوبة مفرقة .

قُلِ الله: قل الله أنزله (التوراة) .

خَوْضِهِمْ: باطلهم .

إن ((الفضيلة)) ليست خاصةً بسلالة أو شعبٍ معين، إنها عطية من الله تعالى، ولا يستحقها سوى الأفراد الذين جعلوا من أنفسهم صالحين وفقاً لهداية الله، فاجتنبوا كل أنواع الشرك، وانضموا إلى المشروع الدعوي المتمثل في ((البلاغ والتذكير بلا أجرةً)) انضماماً كاملاً شاملاً، وهؤلاء أناس يتخذون من كتاب الله دليل حياتهم الحقيقي، ويدمجون وجودهم فيه فتنكشف لهم أسرار هذا الطريق المسماة ((بالحكمة))، فيشرفهم الله تعالى بالاجتباء ؛ فيوفّق من شاء منهم لإبلاغ رسالته إلى البشر؛ كنبي من أنبيائه في عصر النبوة ؛ وكداعٍ من دعاة دينه في عصر ما بعد ختم النبوة. إن جائزة الله، سواء أكانت للأنبياء على وجه الخصوص، أم لأفراد البشر على وجه العموم، إنما تُنال على

أساسٍ من الإحسان فى العمل وليس على أي أساسٍ آخر سواه.

إن عملية الدعوة إلى الحق لا يضطلع بها إلا الأفراد الذين بلغوا من الإخلاص ونكران الذات وغاية النصح للمدعو، فلا يعلقون عليه أي أملٍ أو رجاءٍ مادي ؛ إذ ليس من المعقول أن تبلغ شخصًا أو طائفًة ما برسالة الآخرة، ثم تتصدى للاحتجاج عليها من أجل حقوقك ومطالبك المادية، ولو أن الداعي لم يأخذ الحقيقة في اعتباره لصارت دعوته موضوع سخرية لدى المدعو، ولن ينظر إليها أبداً على أنها نشاط جاد مخلص يستهدف خيراً له وللمجتمع البشرى كله.

لقد آمن برسول الله ﷺ نفر قليل من أهل مكة، ولكن قومه رفضوه، ومن بعد ذلك شرح الله صدور أهل المدينة لصالح دعوته فآمنوا به، حتى إنه صار من الممكن لرسول الله ﷺ أن يهاجر من مكة إلى المدينة، ويقيم بها مركزاً للدعوة الإسلامية، وقد حصلت نصرة الله هذه لرسول الله ﷺ فى أتم صورها، على أن الله -عز وجل- لا يحرم دعاة أمته أيضاً من هذه النصرة، وقد ظل ينصرهم على مدار التاريخ بحسب مشيئته العليا، والتي لا يعلمها إلا هو .

﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾

مُبَارَكٌ: كثير المنافع والفوائد (القرآن العظيم)

أُمَّ القُرَى: مكة . أي أهلها .

وَمَنْ حَوْلَهَا: أهل المشارق والمغارب .

غمرات المَوْتِ: سكراته وشدائده .

أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ: خلصوها مما هي فيه من العذاب .

عَذَابَ الهُونِ: الهوان الشديد والخزي .

حين عرض رسول الله ﷺ دعوته على أهل مكة، سأل أناس منهم بعض اليهود عن رأيهم ؛ وعما إذا كان قد نزل على محمد كلام الله ؟ فكان جواب اليهود : ﴿ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ﴾ . وهذا الرد مفاجأة غريبة ؛ لأن اليهود كانوا من المؤمنين بالأنبياء، وهكذا فكأنهم كانوا مقرين بالفعل بأن كلام الله ينزل على البشر غير أن المرء عندما يعارض أحد خصومه معارضةً عمياء، فقد يذهب به الحماس في إنكاره وتكذيبه إلى حدٍ يأخذ معه يفند مسلماته ومعتقداته نفسها .

وباعث هذا العناد في نفوس اليهود أنهم أحالوا كتاب الله قراطيس أو ورقات متفرقةً؛ فكانوا يظهرون منها بعض أجزائها، ويدعون الباقي مطوياً بين دفتى الكتاب، فيسمعون ويُسمعون بشغفٍ زائدٍ تلك الآيات التي تتحدث عن الإنعام الإلهى، ويتركون تلك الآيات التي تؤكد على أعمالٍ لابد من إتيانها لاستحقاق الإنعام الموعود، وركزوا على بعض آياتٍ معينةٍ لكونها مظنة تأييد لعويلهم السياسى، ويتركون آياتٍ أخرى تتضمن أحكاماً حول العمل الإصلاحى الصامت، وكانوا يقفون وقفاتٍ طويلةً عند الآيات التى تتيح لهم فرصة لإظهار براعة التنقير اللفظى والاستنباطات الفرعية، ويمرون سريعاً بالآيات التى تدور حول حقائق الدين الجوهرية والأبدية، وكانوا كثيراً ما يرددون الآيات التى تذكر بعض مناقبهم، بينما لا يلقون بالاً إلى الآيات التى تذكر المسئوليات المنوطة بهم، والذين يحيلون كتاب الله ((ورقات)) على هذا النحو، يتولد في نفوسهم العناد والتمرد، فيخوضون فى مناقشات سخيفةٍ، ويصدرون بيانات متناقضةً، ومن ثم فلا يُرجى منهم تعاون حقيقى، فالذين ليسوا بعادلين حتى مع كتاب الله ،

كيف يمكن أن يلتزموا بالعدل والإنصاف في التعامل مع البشر ؟!

إن دعوة الدين دعوة إنذار الناس وتنبيههم، ومثل هذه الدعوة، مهما عُرضت على لسان إنسانٍ مثاليٍ كاملٍ، لا تستقر في قلب السامع إلا إذا كان يحمل في صدره قلباً خفاقاً بالحذر والخوف، ويعتبر قضيةَ الآخرة قضية جادةً، أما إذا كان السامع خالياً من هذا العنصر الأولى، فإن المستمع لن ينفعه شيئاً !

﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ ۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ ۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ ﴾

ما خَوَّلْنَاكُمْ: ما أعطيناكم من متاع الدنيا.

تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ: تفرق الاتصال بينكم .

فَالِقُ الحَبِّ: شاقه عن النبات ، أو خالقه .

فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ: فكيف تصرفون عن عبادته .

إن الله تعالى حين يبعث عبداً من عباد لإبلاغ رسالته وإعلاء كلمته ؛ فيكتب له توفيقاً خاصاً، فإن سلوكه يكون مطبوعاً بطابع الخوف من اليوم الآخر، وأحاديثه تعكس قوة البرهان الإلهي، ويحالفه النجاح في مواصلة جهوده الدعوية والبلوغ بها آخر الأمر إلى غايتها المنشودة، ويكون بكل وجوده آية الله في أرضه.

غير أن الذين بهرت عيونهم مظاهر العظمة الدنيوية الجوفاء ؛ لا يكادون يفقهون عظمة الداعي إلى الآخرة، فيرون أنفسهم - في ضوء مقياسهم المادي - أرفع شأناً من ذات الداعي إلى الله، ممَّا يصيبهم بالكبر ؛ فليس من المستبعد إذن أن يقع أمثال هؤلاء في

سوء فهمٍ بأنهم قادرون على إبداع كلام مماثلٍ للكلام الذي ينزله الله على أحد عباده، إنهم يريدون رؤية الله في الخوارق والآيات الطلسمية، فلا يتمكنون من رؤية الله الذي يتجلى عبر الآيات البشرية.

وسبب هذا الكبر الذي يتولد في نفس أحد الناس، إنما يرجع إلى اغتراره بمركزه الدنيوي، وما يتمتع به من المتاع واللذائذ المادية في الحياة الدنيا، فيغيب عن باله أن كل ما أتيح له في هذه الدنيا ليس إلا للابتلاء ولفترةٍ محدودة ؛ فحين ينتهي أجله يُسلب كل هذه الأشياء فجأة، وسيبقى المرء فرداً وحيداً تماماً كما كان وحيداً عند ولادته، فكل امرئٍ يتوصل بعد الموت فوراً إلى حيث لا يكون معه ثروته التي اقتناها، ولا مركزه الذي اغتر به، فلا يجد من حوله أعوانه ولا شفعاءه الذين اعتمد عليهم، إنما سيكون هناك - بمفرده - بين يدي الله ربه، وأي شيء من الأشياء التي كانت موضع فخره واعتزازه في الحياة الدنيا لن ينجيه من عذاب الله يومئذٍ.

إن كل امرئ في هذه الدنيا يعيش في طلسمٍ من الألفاظ، فالكل يصطنع لنفسه مجموعةً من الألفاظ، يبدو من خلالها أنه وحده على الحق، وأن طريقه الطريق المستقيم، غير أن انقلاب الآخرة حين يمزق الأستار عن وجه الحقائق، فإن طلاسم الألفاظ ستصبح تافهةً وفارغة المعنى كأن لم يكن لها من وجودٍ بالأمس !

﴿ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾ ﴾

فَالِقُ الإِصْبَاحِ: شاق ظلمته عن بياض النهار أو خالقه .

وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ يجريان في أفلاكها بحساب مقدر.

حُسْبَاناً: نيطت به مصالح الخلق .

فَمُسْتَقَرٌّ: في الأصلاب، وقيل في الأرحام . ونحوها .

وَمُسْتَوْدَعٌ: في الأرحام ونحوها وقيل في الأصلاب .

إن الإنسان حين يريد صنع سيارة أو آلةٍ ما ؛ فإنه لا يصنعها جملةً واحدةً، بل هو يصنع أولاً كل ترسٍ من تروسها على حدةٍ، ثم يتناول هذه التروس بربط بعضها ببعض، ولكن الله -جلّت قدرته- عندما ينبت شجرةً أو يخلق إنساناً فإن عملية الإنبات والخلق تتم بشكل مختلفٍ، وذلك أنه تعالى يُخرج أي شيء إلى الوجود بكل عناصره التكوينية مجتمعةً في آنٍ واحدٍ ؛ ففي المصنع الإلهي يتم إخراج شجرةٍ كاملةٍ أو إيجاد إنسان كامل من خلال نواةٍ أو نطفةٍ على نحوٍ مرحلي متدرجٍ، وهذه تقنية فذة للغاية لا يقدر على اتباعها أي إنسانٍ، مما يثبت أن هناك موجوداً أعلى من الإنسان، وتصميمه فوق كل التصاميم.

إن حجم الشمس يكبر عن الأرض مليوناً ومائتي ألف مرةٍ، والأرض أكبر من القمر أربع مراتٍ، وهذه الأجرام كلها في حركةٍ مستمرةٍ، فالقمر، الذي يبلغ بعده عن الأرض حوالي مائتين وخمسين ألف ميل، يدور حول الأرض، والأرض تبتعد عن الشمس بنحو ثلاثةٍ وتسعين مليون ميلٍ، تدور بطريقتين : في محورها، وعلى مدارها حول الشمس. وهكذا الشأن بالنسبة إلى دوران الكواكب، فهي تقع على مسافاتٍ شاسعةٍ تدعو إلى الدهشة والإكبار البالغين، ولا تزال تتحرك حركةً مستمرةً منضبطةً تمام الانضباط،، وعلى هذا النظام الكوني يترتب حدوث الليل والنهار، وبه يتقرر جدول الأزمان، وفي ضوئه يمكن للإنسان إجراء التنسيق في مختلف نشاطاته وتنظيم شئونه، وهذا النظام الهائل يسير بدقةٍ بالغةٍ فلا يحدث فيه أدنى خلل أو اضطراب على مر القرون، مما يثبت أن ثمة وجوداً وراء هذا الكون يتمتع بطاقاتٍ لا نهائيةٍ.

وآيات الله هذه تدل على أن موجد هذا المصنع ذو علمٍ شاملٍ ؛ لأن أي موجودٍ غير

ذي علمٍ لن يتمكن من إقامة جهازٍ ضخمٍ من هذا النوع، وأنه وجود ذو قوةٍ قاهرةٍ غلابةٍ؛ إذْ بدونه يستحيل تسيير وإدارة شئون مثل هذا المصنع الضخم على هذا النحو الدقيق، وإن تخطيطه غاية في الإتقان والكمال ؛ ولولا ذلك لما كان من الممكن أن يوجد في الكون الفسيح هذا الانسجام الرائع والروح المدهشة.

إن دنيا الله مليئة بدلائل الله، بيد أن الدليل علم على معقولية نظرية، وليس علماً على مطرقةٍ من حديدٍ، فلا يمكن أن يعترف بالدليل إلا شخص جاد، ويكون قد أعد نفسه شعورياً للاعتراف بالدليل ، بغض النظر عما إذا كان موافقاً لهواه أو مخالفاً له !

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾

خَضِراً: شيئا أخضر غضا .

حَباً مُتَرَاكِباً: متراكما كسنابل الحنطة ونحوها .

طَلْعِهَا: هو أول ما يخرج من ثمر النخل في الكيزان .

قِنْوَانٌ: عذوق وعراجين العناقيد تنشق عنها الكيزان .

دَانِيَةٌ: متدلية أو قريبة من المتناول.

وَيَنْعِهِ: وإلى حال نضجه وإدراكه .

الجِنَّ: الشياطين حيث أطاعوهم في الكفر .

وَخَرَقُوا لَهُ: اختلقوا وافتروا له سبحانه.

إن المصانع البشرية لا تقدر على إنتاج آلة تخرج من بطنها آلات مماثلة بعددٍ لا يُحصى، فإن مصانعنا تضطر إلى إعداد كل آلةٍ على حدة، ولكن هذا الواقع يحدث في مصنع الله كل يومٍ، فمن داخل حبة شجرةٍ واحدةٍ تُزرع في الأرض تظل تخرج أشجاراً لا حصر لها، وهو الأمر بالنسبة للإنسان، إذْ ما زال يولد ولا يزال بلايين البلايين من البشر، بدءاً من رجلٍ وامرأةٍ، دون أن تنقطع سلسلة المواليد هذه أو تقف عند حدٍ.

وهذه المشاهدة تدل على أن الإله الذي خلق هذا الكون يملك قدرةً واسعةً غير محدودةٍ، وأنه قادر على عملية الخلق بأن يوجد شيئاً أولياً ثم يخرج من داخله أشياء متناهية في الكبر والضخامة بتسلسلٍ دائمٍ متصلٍ، وهكذا فإن الله -عز وجل- يقدر على إخراج عالمٍ أكمل وأرفع مستوى وأكثر بهجةً وجمالاً من خلال عالمنا الحاضر، فليس الاعتقاد في العالم الآخر بقياس مستحيل أو مستبعدٍ ؛ بل يعني أن نسلم بالإمكان نفسه الذي نشاهده كل يومٍ، كواقعٍ من وقائع المستقبل.

والتراب - فيما يبدو - شيء جامد لا حياة فيه، ولكن حتى ينزل عليه المطر ينبثق عنه عالم جديد مملوء خضرةً ونضارةً، حيث تخرج من جوفه أنواع شتى من الزروع وأشجار ذات ثمارٍ مختلفة الأجناس والأشكال، وهذه الواقعة بدورها تمثيل للعالم الذي يلي العالم الراهن، وما من عملٍ صالحٍ يعمله الإنسان في دنيا اليوم إلا وهو إمكان من هذا النوع نفسه، وإذا ما نزلت أمطار الرحمة الإلهية فلا يلبث هذا الإمكان أن يخضرّ ويزدهر، ويتحول إلى زرع الآخرة البهيج ؛ أي الجنة .

إن الإنسان يتم إيداعه أولاً في بطن الأم، ثم يُنقل منه إلى العالم الراهن، والقبر هو الآخر بمثابة «بطن» من هذا القبيل ؛ فالمرء يتم إيداعه في حفرة القبر، فيفتح عينه بعد ذلك في العالم الآخر كي يُساق إلى الجنة أو الجحيم على حسب أعماله.

وعالم الغيب الذي يُطالب الإنسان بالإيمان به تتوافر دلائله وانعكاساته في أرجاء الكون المحسوس بشكلٍ كاملٍ، إلا أنه لا يعترف به إلا من يعترف مسبقاً، ففي «طريق

الإيمان» يكون المرء قد قطع نصف رحلةٍ تصير دعوة الإيمان جزءاً من ذهنه ويتلقاها بالقبول، أما الشخص الذي يواصل رحلته في اتجاهٍ معاكسٍ للإيمان، فإن دعوة الإيمان لن تنفعه شيئاً!

﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾ قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿١٠٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ وَلِيَقُولُوا۟ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾

بَدِيعُ: مبدع ومخترع .

أَنَّى يَكُونُ: كيف ، أو من أين يكون .

وَكِيلٌ: رقيب ومتول .

لاَ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ: لا تحيط به تعالى .

بَصَائِرُ: آيات وبراهين تهدي للحق .

بِحَفِيظٍ: برقيب أحصي أعمالكم لمجازاتكم .

دَرَسْتَ: قرأت وتعلمت من أهل الكتاب

إن من ضعف الإنسان منذ أقدم العصور أنه إذا رأى شيئاً ما ينطوي على أي نوعٍ من الامتياز أو السرية والغموض، فلا يلبث أن يعتبره شريكاً لله، ويعبده، طلباً لحمايته أو توقياً من ويلات غضبه، وقد عبد كثير من الناس الملائكة والكواكب والجن مدفوعين بالعقلية نفسها، على حين أن خلو هذه الأشياء من صفة "الخلق" دليل

واضح على أنها ليست من الألوهية في شيء، فما خلقت نفسها ولا قادرة على خلق سواها، وإنما قام بخلقها إله آخر، إذن فمن ذا سيكون الإله المستحق للعبادة : الخالق أم المخلوق؟!

إن العناصر التي لابد منها لبقاء شجرةٍ ونموها وازدهارها، لا تزال تصل إليها بمقاديرها المناسبة المتوازنة بانتظامٍ، وهكذا الحال لموجودات الكون الأخرى، وإذا كانت الحقيقة أن كل ما تتلقاه هذه الأشياء مما تحتاج إليه، إنما هو ((عطاء)) لها، فمما لا شك فيه أن هذا ((المعطى))خبير بكل شيء، ويشمل علمه الجزئيات والكليات؛ فلولا ذلك لما كان بإمكانه أن يقوم بتدبير أمر كل مخلوقٍ على حسب حاجاته، إذن فالإله الذي يملك هذه الصفات الكاملة والقدرات الشاملة، ماذا سيحوجه إلى أن يتخذ من أحد مخلوقاته شريكاً له في ألوهيته وربوبيته؟!

والإنسان يريد أن يشاهد الله بصورةٍ حسيةٍ، وإذا كان الله لا يتراءى له بصورةٍ حسيةٍ، فإنه لا يلبث أن يتجه إلى أشياء أخرى محسوسةٍ يفترضها آلهةً فيعبدها، غير أن هذا تقدير بخسٍ للذات الإلهية ؛ فإن الإله الذي بلغ منتهى العظمة والجلال إذْ خلق هذا الكون الهائل، ولا يزال يدبره ويدير شئونه بغاية من الضبط والتنسيق، كيف يمكن أن يكون ((عادياً)) بحيث يراه مخلوق ضعيف بعينه ويلمسه بيده؟!

بيد أن الإنسان يستطيع أن يدرك الله عن طريق القلب، ويراه بعين اليقين، فالشخص الذي تكفيه ((مشاهدة البصيرة))للاقتناع والإيمان، سيوفق للظفر بالله، وأما الشخص الذي يأبى إلا أن يشاهد الله بالبصر ويراه رأي العين، فسيظل محروماً من إدراك الله تماماً .

﴿ ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟ ۖ وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٧﴾ وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ

أُمَّةٍ عَمْلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا ٱلْأَيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٩﴾﴾

عَدْواً: اعتداء وظلما.

جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ: مجتهدين في الحلف بأغلظها وأوكدها.

ومن الناس من يحمل في قلبه جذوة الطلب؛ فيبحث عن الصدق بجدٍ وإخلاصٍ، ومنهم مَنْ نالوا نصيباً من المال أو السلطة؛ فيحسبون أنهم أناس محظوظون؛ ليس بهم عوْز أو فراغ ما، يسده أي شخصٍ آخر، ومعظم المعتنقين لدعوة الحق، حين تقوم، هم الذين ينتمون إلى الصنف الأول. وأما الذين ينتمون إلى الصنف الثاني، فلا يعتبرونها قضيةً تستحق الاهتمام؛ فلا يتأملون فيها أبداً بجديةٍ، وبالتالي فلا تتضح لهم أهميتها وخطورة شأنها بطبيعة الحال، وفي مثل هذه الأوضاع تتوخى دعوة الحق تحقيق غرضين رئيسيين، أولاً: إرواء عطش الباحثين الصادقين وتقديم الإجابة الشافية عن طلبهم، وثانياً: إتمام الحجة على مَنْ سواهم، وهدف الدعوة - بالنسبة إلى الصنف الأول - يتلخص في اجتذابهم إلى حظيرة الأيمان، وبالنسبة للصنف الثاني في إبلاغهم بالدعوة، فلا يلبثون أن يصرخوا قائلين للداعي: نعم قد درست، أي قد بلغتنا رسالتك.

وربما يلجأ المنكرون للدعوة، لتبرير إنكارهم، إلى إثارة ألوانٍ شتى من الأقاويل وافتعال أسباب المعارضة، مما يجعل الداعي يحدث نفسه بتناول أسلوب عرض الدعوة بنوعٍ من التغيير رجاء أن تصبح جديرةً بالقبول لدى المدعو، غير أن مثل هذا الانحراف لا يجوز، وإنما يجب على الداعي أن يلتزم بالأسلوب نفسه الذي تم تلقينه من عند الله تعالى، لأن المقصد الأصلي ربط الإنسان بالله ربه، وليس كسب الجماهير، فليس من الجائز أن تدفعك ثورة الغضب أو الاهتياج على بعض تصرفات المدعو إلى أن توجه إليه كلاماً قاسياً أو لاذعاً يبعثه هو الآخر على مقابلتك بما هو أفحش وأشنع من السب

والشتيمة لضلاله وجهالته.

إن المرء يتولد في نفسه نوع من العصبية في حق تلك العادات والتقاليد الخاصة التي ينشأ ويترعرع في ظلها، وتلك الآراء والأفكار السائدة في بيئته فيألفها ويستأنس بها وتتكون لديه شاكلة فكرية معينة يفكر في ضوئها، وهذه الشاكلة الفكرية عقبة كبرى تحول دون قبول الحق، ولن يجد صوت الحق مدخلاً إلى ذهن المرء وعقله ما لم يقم بتحطيم هذه الشاكلة الفكرية البالية .

﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾ ۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَـٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾

وَنَذَرُهُمْ: نتركهم .

طُغْيَانِهِمْ: تجاوزهم الحد بالكفر .

يَعْمَهُونَ: يعمون عن الرشد .

وَحَشَرْنَا: جمعنا .

قُبُلاً: مقابلة ومواجهة أو جماعة جماعة

زُخْرُفَ القَوْلِ: باطله المموه المزوق .

غُرُوراً: خداعا وأخذا على غرة .

إن الشخص حين يجحد الحق، فإنما يكون وراء ذلك سبب واحد هو : النظر إلى الأمر المعروض من الوجهة المقلوبة بدلاً من وجهته الصحيحة، فأي أمرٍ من الأمور،

مهما كان مدعوماً بالحجج والبراهين القاطعة ، لو أن المرء لايريد الإيمان به ، لوجد لرفضه بعض الألفاظ والمبررات، فبدل أن ينظر إلى دلائل الداعي، يعمد - مثلاً - إلى إثارة النقاش حول ما إذا كان كل الأكابر وكل الرجال الصالحين غيرك محرومين من الحق إن كان الحق معك وحدك، وما إلى ذلك من الأباطيل والترهات، ومن العسير جداً أن يهتدي شخص تغلب عليه هذه النزعة إلى الطريق المستقيم؛ فإنه سيتمكن من إيجاد ألف حيلة وحيلة لإنكار كل أمر يُعرض عليه من خلال توجيهه وجهةً خاطئةً، فإذا كان يرفض الدلائل النظرية بقوله : هذا لا يتفق مع ما كان عليه السلف. فإنه سيجد لرفض المشاهدة الحية ألفاظاً أخرى، فيقول: إنما هي خداع نظرٍ ، وأنها لا تعدو في الحقيقة أن تكون محض طلسمٍ افتراضي، وهكذا، فالنزعة التي حالت دون الإذعان للدليل النظرى أول الأمر ، ستقف بمثابة حجر عثرة دون الإذعان للدليل الحسى كذلك، وسيظل المرء محروماً من الهداية تماماً كما كان محروماً من ذى قبل.

وأمثال هؤلاء يكونون - من حيث طبيعتهم ونفسيتهم - متعنتين معاندين ؛ يودون رؤية أنفسهم دائماً وعلى كل حالٍ فوق الجميع، وحين يتقدم أحد الدعاة إليهم برسالة الحق، فغالباً ما يكون غريباً أو مغموراً في بيئته، ويكون خالياً من مظاهر العظمة المعتد بها في عصره، ويكون الانضمام إليه حينذاك مرادفاً لأن يحط المرء من شأنه ومركزه الاجتماعي، مما يجعل هؤلاء المصابين بمركب الاستعلاء لا يتلقونه بالقبول، ويبادرون بالرد عليه وتكذيبه متعللين بصنوف الحيل والتأويلات اللفظية الواهية.

إن الكياسة أن يذعن المرء لخريطة الله، ويمارس نشاطه طبقاً لها، وعلى نقيض ذلك فإن الحماقة والجهالة أن يتبنى المرء مقياساً مزعوماً زائفاً بدلاً من الخريطة الإلهية، ثم يقول : آخذ ما أجده منطبقاً على هذا المقياس وحده، وكل ما لا ينطبق عليه فمرفوض، إن مصير هذا الرجل التخبط في متاهات الضلال، إذ المرء يمكنه الوصول إلى الهدف، في دنيا الله باتباع الطرق المقررة من عند الله، وليس بالعكس .

﴿ وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾ ﴾

وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ: لتميل إلى زخرف القول .

أَوَ لِيَقْتَرِفُوا: ليكتسبوا من الآثام.

الْمُمْتَرِينَ: الشاكين في أنهم يعلمون ذلك .

قال ابن جرير: عن أبي ذرٍ ﷺ قال : أتيت رسول الله ﷺ فى مجلسٍ قد أطال فيه الجلوس، قال، فقال : ((يا أبا ذر هل صليت)) ؟ قلت : لا، يا رسول الله . قال : ((قم فاركع ركعتين)) قال : ثم جئت فجلست إليه، فقال : ((يا أبا ذر هل تعوذت بالله من شياطين الجن والإنس)) ؟ قال : قلت : لا يا رسول الله، وهل للإنس من شياطين ؟ قال : ((نعم، هم شر من شياطين الجن)) (١).

والمراد من شياطين الإنس: الذين يلعبون دوراً قيادياً في سبيل الاستخفاف بالدعوة وتشويه سمعتها، وهؤلاء أناس احتلوا مركز الشرف والنفوذ الواسع بناءً على ديانةٍ مزعومةٍ، فحين تقوم دعوة الحق، في صورتها النقية الخالصة، يخبل إليهم أنها تعمل على تعريتهم وسحب البساط من تحت أقدامهم، ولقد كان الطريق الأقوم لأمثال هؤلاء أن يعترفوا بالحق دون تحفظٍ بعدما صار واضحاً، غير أن مركزهم أعز عليهم من الحق، فمن أجل الحفاظ على مكانتهم لا يلبثون أن يأخذوا في إثارة شبهات حول الداعي ودعوته، وللوصول إلى هذا الغرض يعتمد هؤلاء على سلاحٍ واحدٍ، هو العبارات المنمقة والكلمات المزخرفة الخلابة ؛ حيث يتلمسون في شخصية الداعي ودعوته من

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير ١/ ٦٠٩ .

العيوب أو جوانب النقص، ما لا يكون من الحقيقة في شيء، ولكن يتم تمويهه بأسلوب ينخدع به الكثير من الناس، فيقعون في شكٍ وحيرةٍ .

إن واحداً من أحوال الامتحان والابتلاء التي وجدت في العالم الحاضر، أن كلاً من المتحدث عن الحق والمتحدث عن الباطل يجد ألفاظاً مؤيدة لصالح دعواه على حدٍ سواء، فإذا كان بإمكان الداعي إلى الحق أن يبين الحق بلغة المنطق والبرهان، فإن الفرصة متاحة للمبطلين ليستخدموا ضد الحق كلماتٍ مزخرفةٍ مزوقةً يحسبها الناس دلائل، فيتخلوا عن مناصرة الحق نتيجة التأثر والانخداع بها، وبما أن هذا الوضع من أجل الامتحان، فلن يزال قائماً إلى يوم القيامة، إذن فلابد للمرء، ما دام في هذه الدنيا، من مواجهة هذا الامتحان الذي يفرض عليه أن يفرق بين الدلائل الحقة وبين الأقاويل الباطلة التي لا أساس لها من الصحة، فيتلقى الأولى بالقبول ضارباً بالأخيرة عرض الحائط.

والشبهات المموهة التي يثيرها شياطين الإنس ضد الحق بخبثهم ودهائهم، لا تخدع ولا تستميل سوى الذين خوت قلوبهم من همّ الآخرة ؛ فإن هم الآخرة واستحضار أهوالها يجعل المرء جاداً، والذي يكون جاداً لا تخفى عليه حقائق الأمور، ولكن الذين خلت قلوبهم من هم الآخرة، فلا يكونون جادين في أمر الحق، فلا يستطيعون فهم الفرق بين القول المزخرف وبين الدليل الحق !

﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١١٧﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ ﴾

كَلِمَتُ رَبِّكَ: كلامه وهو القرآن العظيم .

صِدْقاً وَعَدْلاً: في مواعيده ـ وفي أحكامه .

يَخْرُصُونَ: يكذبون فيما ينسبونه إلى الله تعالى .

عندما نزلت أحكام الذبائح في القرآن، وأُعلِن: ألا تأكلوا الحيوان الميت ، ولتأكلوا ما تم ذبحه باسم الله، قال قوم من المشركين - تهكماً : ما أغرب شريعة المسلمين ؛ يعتبرون ما قتلوه بأيديهم حلالاً، بينما يعدون ما قتله الله - عز وجل- حراماً ؟!

وهذه الجملة لا تعدو أن تكون سجعاً لفظياً فارغاً، غير أنها لم تلبث أن خدعت الكثيرين، وجعلتهم ينظرون إلى الإسلام بعين الشك والارتياب وتلك ظاهرة يتكرر حدوثها، ففي كل زمانٍ يكون عدد الفاهمين للأمور في حقيقتها الأصلية قليلاً، ويظل أكثر الناس متورطين في المعميات والأحاجي اللفظية، ولا يلبث هؤلاء أن يظنوا الأوهام والخيالات الزائفة حقائق واقعية ؛ بسبب عرضها بأسلوبٍ شيقٍ وكلماتٍ جميلةٍ، بيد أننا نعيش في عالمٍ لم يترك الله فيه حقيقة أساسية إلا أنزل عنها بياناً واضحاً، ومن ثم فإن وقوع أحدنا في هذا النوع من الضلال أو الانحراف أمر لا يُغتفر.

إن كلام الله هو المعيار الحق الذي يستطيع كل شخصٍ معرفة ما إذا كانت دعواه حقيقةً واقعيةً أو شعوذة لفظية ؟!

لقد زودنا الله تعالى بتصريحٍ صادقٍ عن كل ما هو ضروري من أمور الماضى والحاضر والمستقبل، كما أرشدنا تعالى إلى أقوم الطرق وأكملها عدلاً وإنصافاً لكل جوانب العلاقات الإنسانية وأبعادها، فلو كان المرء جاداً، لما صعب أن يعرف الحق والباطل ؟! ولن يقع فى الشك والارتياب إلا من كان تفكيره يعمل تحت التأثر بعوامل أخرى غير الكلام الإلهى، فالشخص الذي يجعل تفكيره وفقاً للحقائق الإلهية، يغدو من المستحيل أن يتورط فى الانحراف الفكرى، وهذا التباين الإلهي، لو لم يهتد المرء إلى سبيل الحق، فإن الله عليم بحقيقة حاله ؛ فيعلم جيداً من ذا الذي لم يعط أهميةٍ للصدق الذي ظهر خارج ذاته من أجل حرصه على كبريائه وعظمته الذاتية، ومن ذا الذى حال

تعصبه الأعمى دون تفهمه لأمر الحق، ومَن الذي أهمل نداء الصدق ولم يعره أى اهتمام بسبب رغبته في المظاهر الرخيصة ، ومَن الذي لم يتمكن من معرفة الحق بسبب سيطرة مشاعر الحقد والحسد على ذهنه وعقله ؟!

﴿ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾ وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ ۗ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾

وَذَرُوا: اتركوا .

يَقْتَرِفُونَ: يكتسبون من الإثم أيا كان.

وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ: خروج عن الطاعة ومعصية .

لا شيء في الدنيا إلا وهو - بالنسبة إلينا نحن البشر - ((مال الغير))، لأن كل شيء ملك لله، وإنما الصورة الوحيدة لاستحلاله لأنفسنا أن نحصل عليه بالطريقة التي هدانا الله إليها، وأن نستخدمه وفق الطريقة المرضية عند الله - عز وجل .

إن الحيوانات تقدم لنا غذاءً ثميناً، غير أن السؤال هو : كيف حصل لنا حق التغذي بها ؟ إن التسمية أو ذكر اسم الله عند الذبح هو الجواب عن هذا السؤال، فليست التسمية بأي اسمٍ أو عادةٍ لفظيةٍ. إنها في الأصل اعتراف بالكية الله للحيوان، وتأدية الشكر لله على إعطائه إيانا، وذكر اسم الله عند الذبح رمز للاعتراف والشكر. وهذا

الاعتراف والشكر هو «الثمن» الذي بدفعه إلى مالكه يصبح أحد حيواناته حلالاً لنا ، على أن الشخص المضطر يعفى من هذا الالتزام.

إن المرء حين يتخلى عن أحكام الله بشأن الحلال و الحرام وبشأن المباح والمحظور، فإن الأوهام والخرافات تحل محلها، إذْ يتبنى الناس مذاهب وآراء شتى عن الأشياء بناءً على الأفكار والخيالات الوهمية، وقد تكون وراء الأوهام بعض الفلسفات المزعومة، كما تقوم على أساسٍ منها بعض المظاهر الشكلية، والذين يريدون السير في طريق الطاعة لله، فعليهم قطع صلتهم كليةً بهذه الأوهام من الناحيتين : الفكرية والعملية.

إن هناك ديناً تقليدياً يحظى برواجٍ عامٍ لدى كل أمةٍ فيما يتعلق بالطعام والشراب وأساليب تناولها وأمور الحياة، ومشاعر الناس نحو الدين التقليدي الرائج تكون شديدةً، لكونه يحمل توثيقاتٍ من جهة الشيوخ والسلف الصالحين ، ولذا فإن دعوة الحق حين تصطدم بهذا الدين التقليدي الرائج تُثار زوبعة من الاعتراضات على دعوة الحق، ويخترع زعماء العصر أقاويل مزخرفةً ومفرحةً تمكنهم من إقناع أتباعهم من العوام بأن دينكم التقليدي الرائج هو الحق، وأن هذا «الدين الجديد» باطل، غير أن الله تعالى أحاط بكل شيءٍ علماً، ويكشف عن الحقائق في يوم القيامة، فسيرى كل إنسانٍ ما إذا كان قائماً في حياته الدنيا على أرض الحقيقة أو على أرض الأوهام والخرافات ؟!

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا ۖ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ۘ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ۗ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾ ﴾

صَغَارٌ: ذل عظيم وهوان.

حَرَجًا: شديد الضيق .

يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ: يتكلف صعودها فلا يستطيعه .

الرِّجْسَ: العذاب أو الخذلان.

إنما الحي عند الله هو الذي حين ظهر أمامه نور الهداية اتخذ منه نبراساً يستضيء به في طريق حياته العملية، وفي مقابل ذلك فإن الميت هو الذي يتيه في ظلمات الباطل لحرمانه وابتعاده عن نور الهداية،

وإن عقل هذا الميت يكون متورطاً في حبائل الأوهام والتعصبات العمياء فلا يدرك الحقائق الصادقة والسديدة، ويعوزه المعرفة بماهية الأشياء، فلا يستطيع التمييز بين الكلام الحقيقي والجدال اللفظي العقيم، ويكون غارقاً في غروره، فيستحيل عليه الاعتراف بصدقٍ يأتيه من أحدٍ غيره، وتستحوذ على ذهنه الأفكار التقليدية، فلا يتمكن من اختبار الأشياء على أي مقياسٍ آخر سواها وبسبب مواطن ضعفه وأمراضه الداخلية يتخبط في الظلام، ويتحول إلى إنسانٍ ميتٍ خامدٍ رغم كونه حياً في ظاهر الأمر.

وعلى العكس من ذلك فالذي يفتح صدره للهداية، فلا يلبث أن يتحرر من كل العقد النفسية على اختلاف أنواعها، فلا يتعذر عليه معرفة الصدق أياً كان مظهره، وحجب الألفاظ لا تحول أبداً بينه وبين رؤيته لوجه الحقيقة، ولا تحتل قضايا الذوق والعادة من نفسه وحياته مكاناً فتصبح عائقاً عن التقدم نحو الحق، ويصير الصدق حقيقةً ساطعةً وضاءةً، ولا تحونه العزيمة أو النشاط في الوصول إليها، ويمشي بنفسه في ضوء الحق، ويحاول ((تمشية)) الآخرين في ضوئه كذلك.

والذين توصلوا إلى مقام المشيخة والمرجعية لدى العوام، على أساس مزاعم أسبغوا

عليها ثوب الدين الإلهي، هم أعداء كل صوتٍ يدعو الناس إلى الدين الحق، وأكابر العصر يحاولون جهد طاقاتهم منع الناس من التأثر بدعوة الحق، فتلبس أمرها على الجماهير بزرع ألوانٍ من الشكوك والشبهات في نفوسهم، وصرف دلائل الحق عن وجوهها، وتشويه سمعة الداعي عن طريق نشر أقاويل ضده لا أساس لها من الصحة، غير أن كل هذه المحاولات لا تزيدهم إلا إجراماً، ولا تصيب الداعي أو مسيرته الدعوية بخسارةٍ ذات بالٍ.

إن متبع الحق هو الذي يتمكن من رؤية الحق ومعرفته ولمّا تقترن به مظاهر العظمة الدنيوية، فإن الإقرار بالحق المقرون بالعظمة الدنيوية إقرار بمظاهر العظمة الدنيوية، وليس إقراراً بالحق المحض الذي جاء من عند الله تعالى !

﴿ وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ ۞ لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ ۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾ ﴾

اسْتَكْثَرْتُم مِّنَ الإِنسِ: أكثرتم من دعوتهم للضلال والغواية.

النَّارُ مَثْوَاكُمْ: مأواكم ومستقركم ومقامكم .

إن الحق واضح في ذاته فليس من الصعب على أحدٍ أن يفهمه، ولكن عدداً من الناس، لا يُحصى، في كل زمانٍ، لا يقبلون الحق على الرغم من وضوحه، والسبب وراء ذلك يرجع للموانع والعوائق النفسية التي يُحدثونها في داخلهم فبعضهم يكون قد ربط نفسه بالصالحين والشيوخ المبجلين، فيرى سعادته في محض التمسك بأهدابهم، وأن المصير الوحيد الذي ينتظره، لو تخلى عنهم، هو الضياع والهلاك الشامل، وبعضهم يحذر

من تبدد شمل مصالحه حذراً يملك عليه لبه وجميع مشاعره، فلا يعود بإمكانه أن يتقدم نحو الحق، ومنهم من يُخيل إليه أن التسليم بالحق يعني أن يهدم صرح عظمته وكبريائه بيده، وبعضهم يشعر بأنه لو اعترف بأمرٍ لا يتفق مع تقاليد البيئة السائدة فسيصبح غريباً. وهذه الأفكار والخواطر تسيطر على ذهن المرء، فيرى الاعتراف بالحق بمثابة صعود مرتفعٍ شاهقٍ عسير جداً، حتى إن صدره ليضيق بمجرد النظر إليه، وعلى العكس حال الذين ليسوا بمصابين بالتعقيدات النفسية، والذين يعتبرون الحق أعلى وأسمى من كل شيءٍ، وبما أنهم باحثون مخلصون فحين يظهر الحق أمامهم يعرفونه بدون توقفٍ أو إبطاءٍ ويتلقونه بالقبول بغض النظر عن كل المخاوف والأعذار والعراقيل.

إن الله يأتي بالحق أمام الناس في صورة الآيات، فأما الذين في قلوبهم زيغ واعوجاج فيتناولون هذه الإشارات والرموز بالتأويل المزعوم الباطل، تبريراً لعدم اعترافهم بها، وأما الذين صدورهم مفتوحة، فلا يدركون هذه الإشارات بأعماقها، ويجعلون منها غذاءهم الفكرى، وتتجه حياتهم فى ذات الطريق القويم الذى يُقطع فى ضوء هداية الله المباشرة، والذى يؤدى بالمرء إلى الفلاح والسعادة الأبدية.

إن القيمة عند الله تعالى للعمل وليس لأى شيءٍ آخر، فالشخص الذي يطيع الله يأخذ الله بيده ؛ ويوصله إلى دار السلام عنده، ودار السلام هي جنة الله، حيث يعيش المرء في راحةٍ أبديةٍ لا يمسه فيها أى نوعٍ من الآلام والهموم أو المصائب والآفات، ونصرة الله ستنال أفراد البشر، على أعمالهم، فى الحياة القادمة بعد الموت، ولو أن عدداً ملحوظاً من الأفراد أطاعوا الله في الدنيا، فيعطى هذه الجماعة نصيباً من النصرة الإلهية في هذه الدنيا كذلك .

﴿ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ

لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ ﴿١٣٠﴾ ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ﴿١٣١﴾ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٢﴾﴾

وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ: خدعتهم ببهرجها .

إن شخصاً ما حين يضل نتيجة إضلال غيره، فلا يكون ذلك أمراً أحادي الجانب، إذْ إن كِلا الطرفين يحسب أنه واصلٌ عن هذا الطريق إلى غرضه الخاص به، فالشيطان حين يصرف المرء عن سبيل الله من خلال إلهائه بالأماني والأحلام اللذيذة الباطلة، فيحاول بذلك تحقيق تحدّيه الذي كان قد وجهه إلى الخالق عند بدء الخليقة قائلاً : ﴿لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾﴾ [الإسراء :٦١] .

والذين يستسلمون للشيطان فاستسلامهم لمنافع ومصالح معينةٍ يطمحون إليها، فقد يروج بعض الناس تجارة سحره باستغلال أسماء الجن، أو ينسب شعره وكهانته إلى أي أستاذٍ جني لينال الحظوة لدى العوام، وهكذا كل تلك الحركات التى تقوم على أساسٍ من الإغراءات الشيطانية، فإن أنصارها إنما يناصرونها رجاء امتلاكهم زمام القيادة ويستتبعون جموعاً غفيرة من العوام بكل سهولةٍ، لأن الجماهير تكون أسرع استجابةً للهتافات الشيطانية منها للنداء الإلهى.

وفي يوم القيامة إذا ارتفعت الأستار عن وجه الحقائق، فسيتضح أن ضلال الضالين أو إضلال المضلين لم يكن ناشئاً عن سوء فهمٍ، بل كان السبب يرجع إلى إهمالهم للحق .

إن هؤلاء لم يستطيعوا التسامي بأنفسهم عن المظاهر الدنيوية، وما استطاعوا التضحية بالمنافع الوقتية العاجلة، وإلا فالهداية التي فتح الله طريقها بواسطة صفوة من

عباده كانت واضحةً، فلم يبق أي شخصٍ جاهلاً بحقيقة الأمر، غير أن عبوديتهم للدنيا أصبحت غشاوةً على أبصارهم، ومن ثم فلم يعرفوا رغم معرفتهم ولم يسمعوا رغم سماعهم.

وفي اليوم الآخر سينتزع منهم كل شيءٍ، كان مبعث غرورهم وعنادهم في الحياة الدنيا، وحينئذ سيتبين لهم كيف أن الحق قد ظهر أمامهم، ولكنهم رفضوه مرددين بعض الكلمات الكاذبة، وكيف تم إشعارهم بما هم فيه من خطأٍ وباطلٍ، غير أنهم تناولوه بالتأويل الجميل ليثبتوا - كذباً وخداعاً - أنهم على الحق والصواب!

﴿ وَرَبُّكَ ٱلْغَنِىُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ﴿١٣٣﴾ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَأٰتٍ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٤﴾ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١٣٥﴾ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُوا۟ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ ۗ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾ ﴾

بِمُعْجِزِينَ: بفائتين من العذاب.

مَكَانَتِكُمْ: غاية تمكنكم واستطاعتكم.

ذَرَأَ: خلق على وجه الاختراع.

الْحَرْثِ: الزرع.

وَالْأَنْعَامِ: الإبل والبقر والضأن والمعز.

إننا نشاهد في الحياة الدنيا أن مراتب الناس تتفاوت من شخصٍ لآخر، ويكون التفاوت بحسب تفاوت مقدار ونوع الجهد الذي يوجد بين جهد رجل وآخر، إن درجة نجاح شخصٍ ما في هذا العالم تكون وفقاً لحكمته وكياسته وكدحه ومراعاته للمصالح، لا أقل ولا أكثر.

وهكذا الأمر بالنسبة للعالم الآخر، فالدرجات والمراتب في الآخرة تتناسب غاية التناسب مع عمل المرء في حياته الدنيا، وإن الآخرة تتطلب بذل الوقت والمال من أجل النجاح فيها، تماماً كما يبذل المرء وقته وماله من أجل نجاحه في الدنيا، ويتعين على المرء أن يستخدم الدهاء والفطنة بشأن قضية الآخرة كما يستخدم الدهاء والفطنة في قضاياه الدنيوية، وهكذا لابد له من رعاية المصالح والمخاطر فيما يتصل بشئون الآخرة كما يراعي المصالح والخطورات في أمور دنياه، والله الذي يملك قضاء الآخرة خبير بأحوال كل فرد ، فلن يصعب عليه أن يوفي كل أحد أجره بقدر ما يستحقه إن عالم الامتحان والعمل الذي أوجده الله سبحانه وتعالى، يمثل فرصةً ثمينةً أتاحها خالق الإنسان للإنسان؛ فيتمكن من الفوز بالسعادة الأبدية لو أنه مارس العمل الصالح في هذه الحياة القصيرة الأمد، وليس وراء إقامة هذا النظام أية منفعةٍ تعود على الله ذاته، ولا يعبأ الله بما إذا لم يقبل البشر الموجودون الآن على وجه الأرض بمنهجه التكويني ؛ فإنه قادر على أن يقضي على هؤلاء جميعاً وينهض مكانهم آخرون يسلّمون بمنهجه التكويني ويضمون أنفسهم إليه، حتى إنه تعالى يستطيع أن يبعث رمال الصحراء وأوراق الأشجار كعبادٍ أوفياء مخلصين له تعالى، وما ذلك على الله بعزيز.

إن إتاحة المهلة للظلمة والمعاندين، في رحاب عالمٍ يقوم على الحق المحض والعدل المطلق، دليل في حد ذاته على أن هذه المهلة ليست بنعمة، بل من أجل استدراجهم إلى مصيرهم النهائي، ومن ثم فإن الشخص الذي ينكر الحق، يتمتع بنعيم الحياة دون أن يتعرض لسوءٍ، لا ينبغي له أن يُسر بهذا الوضع، لأنه مؤقت، إذ سرعان ما سيأتي الوقت الذي يُسلب فيه المرء كل ما يُطغيه ويبعثه على البطر والعناد، وسيقذف به في

هاويةٍ من الدمار خالداً فيها دون أن يجد إلى الخروج منها سبيل، ولن تُتاح له فرصة ثانية للعمل، ولا يستطيع التخلص من عاقبة ما قدمت يداه من عملٍ!

﴿ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا۟ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ۖ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾ وَقَالُوا۟ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ ۚ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾ ﴾

قَتْلَ أَوْلادِهِمْ: وأد البنات الصغار .

لِيُرْدُوهُمْ: ليهلكوهم بالإغواء .

وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ: ليخلطوا عليهم.

يَفْتَرُونَ: يختلقونه من الكذب .

وَحَرْثٌ: زرع .

حِجْرٌ: محجورة محرمة.

حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا: البحائر والسوائب والحوامي .

قَتْلَ أَوْلادِهِمْ: وأد البنات الصغار .

لِيُرْدُوهُمْ: ليهلكوهم بالإغواء .

وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ: ليخلطوا عليهم.

كان من عادة المشركين أن يخرجوا من الزروع والمواشي حصصاً معينةً لله وللأوثان، وإذا رأوا أن ما جُعل لله من الزرع أو الماشية أجود نوعاً مما جُعل للأوثان ؛ استبدلوا

الأخير بالأول، ولا يفعلون العكس، وكذلك في أثناء توزيع الثمار إذا اختلط شيء من الجزء المسمى للأوثان بالجزء المخصص لله ردوه إلى الأوثان، وإن سقط شيء من جزء الله فيما خصصوه للأوثان لم يردوه، وهكذا لو اقتضت الضرورة يوماً أن يستخدموا شيئاً من أموال النذر لحاجاتهم الذاتية أخذوه من نصيب الله، وأما نصيب الأوثان فلا يمسّونه خشية أن تحل عليهم بليّة أو مصيبة ما، ويدعون الإيمان بالله، غير أن أوثانهم كانت موضع ثقتهم ويقينهم، والمرء إذْ يتخذ الأصنام أو يلجأ إلى الآلهة الحسية الباطلة فإنما يلجأ إليها لكونه لا يعتمد على الإله غير المحسوس اعتماداً كاملاً، وهكذا يكون الحال تماماً بالنسبة لكل شخصٍ يؤمن بالله إيماناً لسانياً محضاً، بينما يكون قلبه عالقاً بأي شيء آخر غير الله تعالى، فالذين يكون حبهم واحترامهم قد ارتبط بأية شخصية حيةٍ أو ميتةٍ، قد لا يرون غضاضةً ما في ذكر «شريكهم» إلى جانب ذكر الله، إلا أنهم لا يستسيغون أن يذكر الله في الوقت الخاص لذكر شريكهم، وقد يسهل عليهم أن يوجهوا شيئاً من نصيب الشوق واللهفة الذي يكون خالصاً لله إلى شركائهم، ولكن لن يصل إلى الله شيء أبداً من قدر الشوق واللهفة الذي يرونه ضرورياً لشركائهم .

وربما تتغلب أهمية هؤلاء الشركاء على ذهن المرء فيذبح لهم حتى أفلاذ أكباده ولو أنه طُولب بتقديم أبنائه ضحايا طلباً لرضا الله لما رضي بذلك، ولكنه يستعد لذلك فرحاً مغتبطاً فيما لو دُعي إلى التضحية بهم أمام شركائه المحبوبين !!

إن سائر العادات والشعائر من هذا النوع لا تزال تمارس باسم الدين الإلهي، بيد أنها لا تعدو في الحقيقة أن تكون افتراء على الله، لأن ذلك يعني نسبة أمرٍ إلى الله، لم يكن الله -تبارك وتعالى- قد أمر عباده به أو علّمهم إيّاه قط!.

﴿ وَقَالُوا۟ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا ۖ وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ ۚ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓا۟ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا۟ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ ۚ قَدْ ضَلُّوا۟

وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾ ۞ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۚ كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾ ۞

وَصْفَهُمْ: كذبهم على الله بالتحليل والتحريم .

مَّعْرُوشَاتٍ: محتاجة للتعريش كالكرم ونحوه .

وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ: مستغناة عنه باستوائها كالنخل .

مُخْتَلِفاً أُكُلُهُ: ثمره المأكول في الهيئة والكيفية .

إن عرب الجاهلية عزوا دينهم إلى سيدنا إبراهيم وسيدنا إسماعيل - عليهما السلام - غير أن الدين الرائج لديهم لم يكن إلا ديناً مزعوماً ابتدعه زعماؤهم وعملوا على نشره وترويجه، وبموجب هذا الدين المزعوم كان عليهم أن يتقيدوا بكثيرٍ من الالتزامات القاسية بشأن تقديم النذور والقرابين لله أو لأصنامهم، فلو ذبحوا البحيرة أو السائبة فخرج من بطنها مولود حي فيأكله الرجال دون النساء، ولو كان المولود ميتاً أكله الرجال والنساء جميعاً، وهكذا فقد كانت هناك طائفة من الحيوانات حرموا الركوب أو حمل الأثقال على ظهورها، وبالنسبة لطائفة أخرى من الحيوانات كانوا يرون أن ذكر اسم الله عند ركوبها أو ذبحها أو حلبها مما ينبغي اجتنابه، إن أمثال هؤلاء يكونون بعيدين عن مقتضيات الدين الأصلية، ويتعدون حدود الله في حياتهم اليومية، ويهتمون بمراعاة الآداب والقيود المتعلقة ببعض المظاهر والمراسم الشكلية اهتماماً يصل إلى الغلو أو التشديد، وإنها لمكيدة شيطانية خطيرة جداً، فالشيطان يُبعد الناس عن أصل الدين ويشغلهم بما ينشر من عاداتٍ وممارساتٍ باسم الدين، ثم يجعل المرء يتشدد ويبالغ في إتيانها، وبالتالي يوقعه في سوء فهمٍ قائلٍ بأنه قائم على دين الله متمسك به بأقصى ما

يمكن من التحفظ والاحتياط، والغلو أو التشديد في ظواهر العبادات نتاج هذه العقلية الخاصة، فيكون فؤاد المرء خالياً من كيفيات التضرع والخشوع، ولكنه من خلال مبالغته في الالتزام ببعض الآداب الظاهرية يزعم أنه قام بأداء عمل العبادة حق القيام، وإن كثيراً منهم قد استحلوا أعمالاً وحشيةً كقتل الأولاد، وهم يحرمون البشر من طيبات ما رزقهم الله، ويذهب بهم الحماس في المسائل العادية إلى التخاصم والاقتتال، ولا يلقون بالاً إلى الأشياء العظيمة الشأن التي يمكن فهم أهميتها عن طريق العقل العام أو الفطرة السليمة !

﴿ وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ۚ كُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٤٢﴾ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۖ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٤٣﴾ ﴾

حَمُولَةً: ما يحمل الأثقال كالإبل .

وَفَرْشاً: ما يفرش للذبح كالغنم .

خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ: طرقه وآثاره تحليلا وتحريما .

لقد أنشأ الله - سبحانه وتعالى - ضروباً شتى من الأغذية للإنسان، فمنها ما يمتد على ظهر الأرض كالشمام والخضراوات وغيرها، ومنها ما تُرفع دواليه على الخشب كالكرم ونحوه، ومنها ما يكون عالقاً بجذع شجرته كالتمر والنارجيل.. إلخ، كما خلق الله للإنسان أنواعاً مختلفةً من الحيوانات بين صغيرٍ وكبيرٍ كالإبل والفرس والشاة والغنم وما إلى ذلك.

إن الإنسان كائن مستقل، وبقية الكائنات مستقلة بذواتها، فقد خُلق كل منها على حدةٍ ، غير أن الإنسان يرى بينه وبين بقية المخلوقات انسجاماً وتوافقاً، فإذا كان جسد

المرء بحاجةٍ إلى التغذية، فإنه يجد خارج وجوده "عبوات غذائية" تتدلى في غصون الأشجار الخضراء، وإذا كان يوجد في لسانه حاسة التذوق لألوان الطعوم فهناك مواد ممتازةً أودعت في الثمار لتسكين حاسته تلك، وإذا كانت عيونه رزقت ذوقاً لجمال المنظر، فإن مصنع الكون كله مزدان بآيات الجمال والبهاء والروعة، وإذا كان الإنسان محتاجاً إلى وسائل للركوب وحمل الأثقال، فقد أوجد الخالق هنا حيواناتٍ يستخدمها كمراكب ووسائل النقل، وتقدم له غذاءً ثميناً، وهكذا فقد أصبح الكون بكل موجوداته إعلاناً لتوحيد الله ؛ إذْ لا يتصور وجود مثل هذه الوحدة والانسجام بين ظواهر الكون المختلفة بدون أن يكون خالقه ومالكه واحداً .

وإن المرء ليمتلئ قلبه بمشاعر الشكر والامتنان حين يشاهد الأسباب الكونية الهائلة تُعد له بدون استحقاقٍ ذاتيٍ منه، وبالإضافة إلى ذلك فإن الأمر يصبح بالنسبة للمرء غذاءً للتقوى لأن الفطرة البشرية تقتضي أن تكون كل عنايةٍ أو امتيازٍ مقترنةً بالمسئولية، وذلك مما يذكر المرء بمجازاة الآخرة، ويبعثه على أن يعيش في هذه الدنيا ، يستحضر اليوم الذي يمثل فيه بين يدي ربه للحساب .

ولو استيقظت هذه المشاعر والأحاسيس في نفس المرء على وجهٍ حقيقي لأسفرت حتماً عن أخذه نفسه بأمرين، أما أحدهما فسيرى لمالكه حقاً في كل خيرٍ يحصل عليه في هذه الدنيا، وأما الآخر فسيبذل مما يملكه بقدر حاجته دون إسرافٍ أو تبذيرٍ، ولكن الشيطان يصرف ذهن المرء عن الاتجاه الصحيح، ويورطه في أمورٍ وشواغل أخرى تافهةٍ لا علاقة لها بهدف حياته الحقيقي .

﴿ وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٤﴾ قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن

يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿١٤٦﴾﴾

وَصَّاكُمُ الله بِهَذَا: أمركم الله بهذا التحريم .

طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ: آكل أيا كان يأكله .

دَماً مَّسْفُوحاً: سائلا مراقا .

فَإِنَّهُ رِجْسٌ: قذر أو خبيث أو نجس حرام .

أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ: ذكر عند ذبحه اسم غير الله .

اضْطُرَّ: ألجئ إلى أكله للضرورة .

غَيْرَ بَاغٍ: غير طالب للمحرم للذة واستئثار .

وَلاَ عَادٍ: ولا متجاوز ما يسد الرمق .

ذِي ظُفُرٍ: ما له إصبع : دابة أو طير .

شُحُومَهُمَا: شحوم الكرش والكليتين.

مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا: ما علق بهما من الشحم فيحل .

الحَوَايَا: المصارين والأمعاء فيحل شحمها .

من جملة الحيوانات التي يربيها العرب للحم واللبن كانت أربعة أنواع أكثر شيوعاً وانتشاراً بين أوساطهم، وهي : الضأن والمعز، والإبل والبقر، وقد ابتدعوا لتلك

الحيوانات قواعد تحريميةً مختلفةً، غير أن هذه القواعد لم تكن تستند إلى أي دليلٍ سوى ما توارثوه من طقوسٍ وتقاليد وثنيةٍ، إذْ لا يوجد في الضأن والمعز والإبل والبقر، سواء أكانت ذكراً أم أنثى، أية علةٍ لتحريمها، إن لحوم هذه الحيوانات خير غذاءٍ للإنسان، كما أنها غير مجبولةٍ على أية عادةٍ قذرةٍ تبعث في النفس الإنسانية الكراهية والاشمئزاز منها، والعلم المنزل من السماء يخلو مما ينص على تحريمها بالصراحة أو الإشارة، إذاً فما مصدر هذه القواعد التحريمية المتنوعة التي تنتشر بين الناس بشأن تلك الحيوانات، إن مرجع ذلك إلى الإغراءات الشيطانية .

إن الشعور بالله والإحساس بالحلال والحرام كامنان بصورةٍ جبليةٍ في فطرة الإنسان؛ لأن المرء ينزع إلى أن يتخذ إلهاً، ويريد أن يفرق بين ما يجوز وما لا يجوز، وإن الشيطان بهذه الحقيقة لخبير، إذْ يحسب أن الإنسان لو أتيحت له فرصة العمل في ظروف ساذجة بسيطةٍ فسيأخذ بالضرورة بمنهج الفطرة الصحيح، فيعمل على ترويج ألوانٍ من الشعائر والعادات الفاسدة ليذهب بنقاء الفطرة الإنسانية، فيخترع باسم الله آلهةً مفترضةً، ويبتدع محرماتٍ زائفةً باسم الحلال والحرام، فيحاول الشيطان أن يحول بين المرء وبين وصوله إلى الحق الأصيل من خلال توريطه في مثل هذه الأشياء والممارسات المفترضة، وبعدئذٍ يكون المرء ضل عن الطريق المستقيم، ولكن بسبب أنه يرى نفسه على "الجادة"، في حين أنها ربما تكون خطاً منحنياً وليست بطريق الحق المستقيم !!

والذين يقعون فريسة الإغراءات الشيطانية يتم اعتبارهم عند الله ظالمين، فإن الله منحهم قوة الفهم والإدراك بحيث كان بإمكانهم أن يميزوا بها بين الحق والباطل، غير أن تعصباتهم العمياء طمست عقولهم وأفهامهم، وصارت غشاوةً على أبصارهم وبصائرهم، فما كادوا يدركون الحقيقة رغم توافر قوى الفهم والإدراك لديهم !

﴿ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾ سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا

وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾

مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ: إلية الضأن فتحل .

يُرَدُّ بَأْسُهُ: لا يدفع عذابه ونقمته .

تَخْرُصُونَ: تكذبون على الله تعالى .

إن المحرمات الأساسية في شريعة الله ظلت دائماً كما وردت في الآية السابقة، يعني : الميتة، والدم المسفوح، ولحم الخنزير، وما أهل لغير الله به ، أما ما عداها من الأشياء المحرمة فإنما يأتي تحريمها في إطار الشرح والتفصيل لتلك المحرمات الأصلية ذاتها، غير أن هناك - بالإضافة إلى ما تقدم - سنةً إلهيةً أخرى للتحريم، وهي أن أمةً أمينةً على الكتاب حين تختار طريق البغي والطغيان بدلاً من الطاعة والانقياد، فقد يتم إلقاؤها في صعوباتٍ ومضايقاتٍ جديدةٍ كعقوبةٍ على عنادها وطغيانها، وتُحرم عليها أشياء لم تكن أصلاً محرمةً في الشريعة الإلهية.

وكيف يتم هذا التحريم ؟! إن أحد الأشكال التي يتخذها عادةً هو أن ينهض في تلك الأمة زعماء ليسوا من جوهر الدين وحقيقته في شيءٍ، إنما هم يعرفون التدين الشكلي فحسب، لطالما يأخذ أمثال هؤلاء يصرفون من الاهتمام بالنسبة للآداب والقواعد الظاهرية للدين ما ينبغي أن يُصرف بالنسبة لحقائق الدين المعنوية، مما يؤدي إلى إحاطة ظواهر الدين بتفريعاتٍ غير ضروريةٍ، حيث يخترع هؤلاء مقاييس ظاهريةً مزعومةً للتدين، ومن خلال الغلو والتشديد يجعلون من الحكم البسيط معقداً، ويحيلون المباح محظوراً.

وعلى سبيل المثال فحين انتشر البغي والعناد بين اليهود نهض فيهم علماء ابتدعوا

بمحض تخرصاتهم قاعدةً تقول: إن بهيمةً من البهائم لا يحل أكلها إلا إذا اجتمع فيها شرطان اثنان في آنٍ واحدٍ ، أحدهما: أن تكون قوائمها مشقوقةً، وثانيهما: أن تكون من الحيوانات المجترة، وكل حيوانٍ لا يتوافر فيه أحد هذين الشرطين فهو محرم، وبسبب هذا الشرط المزعوم دخل في قائمة المحرمات، بلا مبررٍ حيوانات مثل الجمل والوبر والأرنب.. إلخ ، وهكذا فقد ذهب بهم الغلو في تحديد «الظفر» إلى حد أنهم حرموا على أنفسهم النعامة والبجع والبط..إلخ، بدون لزوم، وقد أسفرت مثل هذه القيود والالتزامات غير الفطرية عن إيقاعهم في ضيقٍ وحرج حيث كان الله قد وضع لهم اليسر والسهولة.

إن المرء لا يتعرض لمؤاخذة الله الفورية عقب إنكاره للحق، بل لا يزال يجد نفسه حراً ومتمتعاً بوسائل العيش وأسباب القوة؛ ممّا يصيبه كثيراً بسوء فهم أنه غير خاسرٍ شيئاً مهما جحد وأنكر الحق، ويغيب عنه أن عدم تعرضه لسوءٍ ما إنما يرجع إلى سعة رحمة الله تعالى لا غير، إذْ إن الله - جل شأنه - يمهل المرء، رغم عناده وطغيانه، إلى أقصى الحدود، ولكن في نهاية المطاف إذا هو لم يغير موقفه فلا يلبث أن يأخذه العذاب الإلهي فجأةً .

﴿ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ ۖ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾ قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا ۖ فَإِن شَهِدُوا۟ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ ۚ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٠﴾ ۞ قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ ﴾

الحُجَّةُ البَالِغَةُ: بإرسال الرسل والكتاب .

هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ: أحضروا ، أو هاتوا شهودكم .

بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ: يسوون به غيره في العبادة .

أَتْلُ: أقرأ .

إِمْلاقٍ: فقر .

الفَوَاحِشَ: كبائر المعاصي كالزنا ونحوه .

وَصَّاكُم بِهِ: أمركم به وألزمكم به.

إن دعوة الحق الخالصة تكون دوماً دعوةً غريبةً على بيئتها، إذْ تكون هناك من ناحيةٍ الديانة التقليدية الرائجة التي تتمتع بالغلبة والهيمنة على جميع المرافق والمصالح الاجتماعية ،كما تكون وراءها تقاليد وعادات القرون المتوارثة لدعمها وتأييدها، ومن ناحيةٍ أخرى تكون دعوة الحق مجردةً من كل هذه الخصوصيات الإضافية، وفي مثل هذا الوضع يصعب على الناس أن يفهموا أن الديانة التي تحتل هذه المكانة الرفيعة وتتمتع بهذا النفوذ والانتشار الواسعين بين الناس، عساها ألا تكون ديانةً تتفق مع إرادة الله تعالى، ومن هنا فلا يلبث الناس أن يفترضوا أن الديانة الرائجة إنما تمكنت من هذا النفوذ والانتشار لكونها وفقاً لمشيئة الله ومرضاته، ولولا ذلك لما نالت من النفوذ والانتشار ما نالت، وانطلاقاً من هنا فهم يتساءلون قائلين : فأي الديانتين إذاً ستكون هي الديانة المرضية عند الله تعالى ؛ التي تتمتع بالمكانة العالية في كل مكانٍ من دنيا الله، أو تلك الديانة الخاملة المغمورة التي لا تحظى بأية مكانةٍ تُذكر في دنيا الله ؟!

غير أن الفصل بين الحق والباطل إنما يتم على أساس الدلائل الحقيقية وليس على أساس هذا النوع من الأقيسة والمزاعم، لقد جعل الله هذه الدنيا موضع امتحانٍ، حيث الفرصة متاحة للمرء ليختار ما يشاء ويدع ما يشاء، وهذا الأمر يتوقف كلياً على إرادة

المرء الذاتية وفي هذه الحالة لا يقوم الرواج العام لشيءٍ ما دليلاً على كونه حقاً، إن الحكم على شيءٍ ما بالحقية أو البطلان إنما يعتمد أولاً وأخيراً على الدلائل وليس على الممارسات التقليدية الرائجة: إن الله قد جعل هذه الدنيا موضع امتحانٍ وابتلاءٍ، وبدل أن يلزم الإنسان، قسراً، بمشيئته العليا زوّده بعلم الصواب والخطأ، ثم أعطاه حرية الاختيار لأيهما شاء، إما الصواب وإما الخطأ، ومعنى ذلك أن الحجة أو الدليل ممثل الله في الحياة الدنيا، فالذي يستسلم لدليل صادقٍ فإنه يستسلم لله تعالى، وعلى نقيضٍ من ذلك فإذا هو رفض دليلاً صادقاً فقد رفض الله تعالى.

وعدم خضوع المرء أمام الدليل يرجع إلى عدم تمكنه من التسامي عن شهواته ورغائبه الدنيئة، فهو يتصدى لإطلاق تسمية الحق على الباطل حتى يستطيع تبرير عمله، ويذهب به عناده إلى حد أنه لا يلبث أن يهمل آيات الله الواضحة، ويصبح غير مكترثٍ بأن الله مؤاخذ إياه عاقبة الأمر، وهو يعطي للأشياء الأخرى من الأهمية في حياته مالا ينبغي أن يعطيه إلا لله تعالى وحده !

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۖ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ ﴾

يَبْلُغَ أَشُدَّهُ: استحكام قوته ويرشد.

بِالْقِسْطِ : بالعدل دون زيادة أو نقص .

وُسْعَهَا: طاقتها وما تقدر عليه .

يبتدع الناس ألواناً شتى من الالتزامات الرسمية والظاهرية باسم الوصايا أو الالتزامات الإلهية، ومن خلال الاهتمام الخصوصي بها يقتنعون بأنهم قد قاموا بتوفية الالتزامات الإلهية حقها، بيد أن الالتزامات التي يريد الله الاهتمام بها من الإنسان هي

التزامات حقيقية وليست بمظاهر رسميةٍ من نوعٍ ما.

وأول وصيةٍ هي أن يتخذ المرء من الله الواحد إلهه، وألاّ يتغلب على ذهنه كبرياء أحدٍ سواه، ولا يحسب أحداً غيره موضع ثقته، ولا يعقد آماله على أحدٍ وسواه ، ولا يخاف أحداً غيره، ولا يمتلئ قلبه بحبٍ شديدٍ لأحد سواه.

يكون الآباء في أغلب الأحوال ضعفاء محتاجين في الوقت الذي يبلغ الأولاد ذروة القوة والنشاط، ودافع الإحسان إليهم إذ ذاك لا يكون المنفعة، بل يكون عرفان الحق والجميل ليس غير، وهكذا تصبح قضية تأدية حقوق الوالدين بالنسبة للمرء المادة الأولى لاختباره بما إذا كان قد اختار دين الله على مستوى القول أو على مستوى الفعل، ولو أنه أعطى الأهمية كلها لحق الوالدين بدلاً من ضعفهما، ولو أن حبه لأصدقائه وزوجته وأبنائه لم يُبعده عن أبويه، فكأنما هو قدّم الدليل الأول على أن سلوكه العملي في الحياة سيكون تبعاً لحب المبادئ وعرفان الحقوق وليس تبعاً للمنفعة والمصلحة.

إن الإنسان بسبب حرصه وظلمه لا يدع رزق الله يصل إلى عباده أجمعين على النحو العادل ، وحين يتمخض ذلك عن مشاكل القلة المصطنعة فهو يصرخ قائلاً بأن اقتلوا الآكلين، أو لا تسمحوا للمولودين بأن يولدوا، إن كل الأقاويل من هذا النوع مرادفة للافتراء على نظام الرزق الإلهي.

إن كثيراً من الأعمال السيئة تبلغ من فحش الهيئة وشناعتها حداً لا يُحتاج معه إلى علم غزيرٍ لمعرفة قبحها. إن فطرة الإنسان وضميره كافيان للدلالة على أنها أعمال غير جديرةٍ بأن يمارسها الإنسان. وفي مثل هذه الحالة فإن الشخص الذي يقترف الفحشاء أو المنكر من قولٍ أو فعلٍ فكأنما يكشف عن حرمانه حتى من تلك الدرجة البدائية للإنسانية التي تشكل نقطة بدءٍ لإنسانية إنسانٍ ما !!

إن دم كل إنسانٍ محترمٍ، ولا يجوز إهراقه لأحدٍ ما لم يرتكب جريمةً يغدو معها دمه مباحاً وفق شروطٍ معينةٍ تناولها تشريع الخالق - جل وعلا - بالبيان، وكل هذه الأمور

واضحة لدرجة أنه لا يمكن أن تبقى حقانيتها خافية على أي شخص عاقلٍ.

﴿ وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾ ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾ ﴾

صِرَاطِي مُسْتَقِيماً: سبيلي وديني لا اعوجاج فيه .

إن اليتيم يكون أضعف فردٍ في مجتمعٍ ما، حيث تنعدم في ذاته كل تلك العوامل الإضافية التي تشكل على وجه العموم دوافع السلوك الحسن مع أحد الناس، وإنما يُعامل ((اليتيم)) معاملةً أساسها النصح له والشعور بالمسئولية نحو الشخص الذي تكون أخلاقه قائمةً على الأساس المبدئي الخالص وليس على أساس المنفعة والمصلحة . إن اليتيم يمثل الرمز النهائي لحسن السلوك في مجتمعٍ ما، ومن ثم فالشخص الذي يتعامل مع اليتيم بالحسنى فإنه بالأحرى سيتعامل مع الآخرين بالحسنى كذلك.

كل الأشياء في هذا الكون مرتبطة بعضها ببعض بحيث إن كل شيءٍ يعطي الآخر ما ينبغي له أن يعطيه، ويأخذ من الآخر ما ينبغي له أن يأخذه، ويتعين على الإنسان هو الآخر أن يتبنى هذا المبدأ نفسه في حياته العملية،وأن يكون متمسكاً بالعدل والقسط فيما إذا كال أو وزن شيئاً لأخيه الإنسان، ولا ينبغي له أبداً أن يستخدم لنفسه مكيالاً، ولغيره مكيالاً آخر.

وعلى مدى الحياة يمر المرء بين الفينة والأخرى بمناسباتٍ تفرض عليه أن يبدي رأياً ضد أحد الناس، والطريقة المقبولة عند الله في مثل هذه المناسبات هي ألا يلفظ المرء من قول إلا ما كان صحيحاً وصادقاً على ميزان العدل والإنصاف من غير محاباةٍ ولا مداهنةٍ لأحد الأطراف كائناً من كان.

إن للفطرة عهداً مفروضاً على ابن آدم، ومن العهود ما يكون مكتوباً، ومنها ما لا يُكتب بالحروف والكلمات، غير أن إيمان المرء وإنسانيته ونبالة طبيعته تتطلب منه أن يفعل هذا في مناسبة كذا ولا يفعل ذاك في مناسبة كذا، والوفاء بكلا النوعين من العهود واجب على كل مؤمنٍ ومسلم .

وكل هذه الأمور غاية في الوضوح والجلاء، فإن الوحي السماوي وعقل المرء يشهدان بصدقها وحقانيتها، إلا أنه لا يتعظ بها سوى شخصٍ يريد من صميم قلبه أن يتلقى الموعظة والنصيحة.

إن هذه الأحكام (في الآيات ١٥١ - ١٥٣) هي الأحكام الأساسية للشريعة الإلهية، والعمل بها وفق مفاهيمها السديدة يعني اتباع صراط الله المستقيم، وأما لو تنوولت تلك الأحكام بتفريع الفروع والجزئيات عن طريق التأويل والتعمق والتنقير، وبالتالي صار التأكيد والتركيز كله ينصبّ على هذه الفروع، فذلك هو التخبط في سبُلٍ متفرقة هنا وهناك، وهي بدورها لا ولن توصل المرء أبداً إلى الله - سبحانه وتعالى .

﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ أَن تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُوا۟ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ۚ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ۗ سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾ إِنَّ

ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾

وَصَدَفَ عَنْهَا: أعرض عنها وأصرف الناس عنها .

يَأْتِيَ رَبُّكَ: إيتاء يليق بجلاله تعالى وقدسه .

وَكَانُوا شِيَعاً: فرقا وأحزابا في الضلالة .

الكتاب المنزّل من عند الله، على كونه يضم تفاصيل كثيرة حول شئونٍ مختلفةٍ، إلا أنه يهدف، أولاً وأخيراً، إلى غاية واحدةٍ، ألا وهي أن يوقن المرء بلقاء ربه. يعني أن يمارس حياته في هذه الدنيا بحيث أنه يعتبر نفسه مسئولاً ومحاسباً عند الله عن كل عملٍ يصدر منه، وبالتالي تكون حياته حياة منضبطة دون أن تكون حياةً حرةً طليقةً، إلى هذا الغرض نفسه كانت ترمي الكتب السماوية السابقة كلها، كما أن دعوة القرآن هي الأخرى جاءت تنصب على الغرض ذاته كذلك.

لقد جعل الله الكون خاضعا لمشيئته بموجب سلطته الإجبارية مباشرةً، بيد أنه تعالى منح الإنسان الاختيار الكامل، فقد جرت سنته لهداية الإنسان بأن يطلع الناس على دلائل الحق والباطل عن طريق الرسول والكتاب، فالمشيئة الإلهية تظهر في عالم البشر في صورة الدليل، ومن ثم كان الاعتراف بالدليل هنا اعترافاً بالله، والتكذيب بالدليل تكذيباً بالله.

وعقب انفجار القيامة ستنكشف للناس كل الحقائق الخفية جملةً واحدةً، وحينئذٍ سيجد كل امرئٍ نفسه مضطراً للإيمان بالله وبآياته، إلا أن الإيمان وقتها لا قيمة له البتة؛ فإن الإيمان المعتبر به هو الذي يتم في حالة الغيب، إذ الإيمان في الحقيقة هو أن يقر المرء قبل المشاهدة بما سيكون مرغماً على الإقرار به بعد المشاهدة، أما الشخص الذي يقوم بالإقرار بعد المشاهدة فكأنما هو لم يقر مطلقاً.

والذين أخضعوا أنفسهم اليوم، باختيارهم، لإرادة الله، لهم الجنة عند ربهم. وعلى العكس من ذلك فإن الذين سيخضعون أمام الله على أثر قيام الساعة، فإنما سيكون خضوعهم إذْ ذاك مرادفاً لشهادة إثباتٍ أكيدةٍ على جريمتهم لا غير، حيث إنه سيعني أنهم، طبقاً لاعترافهم أنفسهم، لم يؤمنوا في الدنيا بشيءٍ كان جديراً بالإيمان، وأنهم لم يفعلوا أمراً كان جديراً بالفعل !!

﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾ قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ ﴾

دِيناً قِيَماً: ثابتا مقوما لأمور المعاش والمعاد .

حَنِيفاً: مائلا عن الباطل إلى الدين الحق .

الدين هو ألا يعطي المرء في حياته المكانة العليا لأحدٍ غير الله - تبارك وتعالى- وأن يبني علاقاته على أساسٍ من العرفان للحق وليس على أساسٍ سن المنفعة، وأول علامةٍ على ذلك هي البر بالوالدين، وأن يعتبر الرزق عطية الله ولا يتدخل في النظام الإلهي، وأن يجتنب الفحشاء ومنكرات الأعمال حتى تظل حساسية قلبه نحو الشرِّ حية، وألا يستغل الضعيف، وأقرب امتحان للمرء بهذا الخصوص يتم عبر تعامله مع اليتيم، وأن يكون في أداء الحقوق إلى أصحابها وتبادل الأخذ والعطاء مع الآخرين عادلاً مستقيماً كالميزان، وأن يستخدم لسانه دوماً وفق مقتضى الحق، وأن يعيش حياته، وهو يشعر على كل حالٍ بأنه مربوط بالعهد الإلهي، وأنه غير متحررٍ في أي وقتٍ من تكاليف العهد الإلهي. إن هذا هو الطريق المستقيم الوحيد لممارسة الحياة المطابقة لرضا الله تعالى ؛ فينبغي للمرء إذاً ألا يزال ثابتاً على هذا الطريق المستقيم من غير انحرافٍ إلى اليمين أو الشمال.

إن هذه الأحكام العشرة (١٥١-١٥٣) التي تم بيانها فيما سبق، أحكام فطرية بسيطة، حيث يشهد عقل كل امرئٍ بحقانيتها، ولو أن التركيز والتأكيد ظل محصوراً في نطاق هذه الأشياء لما نشبت أبداً فتنة الاختلاف والتحزب، غير أن الأمم حين تُصاب بالانحطاط، ينبعث فيها زعماء دينيون يستنبطون من هذه الأحكام البسيطة فروعاً غير فطريةٍ، ممّا يحول الوحدة الدينية إلى الفرقة والانقسام.

ففي مجال التوحيد لو أُثير النقاش حول ما إذا كان الله ذا جسدٍ أو غير ذي جسدٍ، أو بدأ التعمق والتنقير في موضوع اليتيم يتجه إلى تحديد ما الشروط التي يصح وصف صاحبها باليتيم أو طُرحت النكتة القائلة بأن هذه الأحكام لا يمكن تنفيذها عملياً ما لم نمتلك زمام الحكومة، ولذا فأول عملٍ يجب القيام به هو تغيير «الحكومة غير الإسلامية». إن مناقشاتٍ من هذا النوع لو بدأت تثار فإنها لن تعرف حداً تقف عنده، وسيصبح مستحيلاً جمع كلمة الأمة على ذلك. وستظهر بعدئذ - وبطبيعة الحال - مذاهب فكرية مختلفة الاتجاهات إلى الوجود، وتتكون جماعات وأحزاب لا تحصى تحت شعاراتٍ شتى، وبالتالي سينتهي اجتماع كلمة الأمة إلى افتراقها طرائق قدداً.

إن تركيز الاهتمام كله على هذا الدين الفطري والبسيط هو الحسنة الكبرى، غير أنه يضطر المرء إلى جهادٍ مع النفس عنيفٍ، ويتعين عليه أن يظل متمسكاً به ملتزماً بالصبر والتضحية على رغم الظروف والأوضاع غير المواتية. إنه لعمل جد عسيرٍ، ولذلك فقد كان جزاؤه أيضاً يُضاعف عند الله عشر أمثاله وأكثر.

وأما الذين يقترفون السوء، ويسيرون في دنيا الله في سبلٍ أخرى متفرقةٍ غير طريق الله المحدد، فإنهم، وإن كانوا يرتكبون جريمةً عظيمةً جداً، إلا أن الله تعالى لا يتخذ ضدهم إجراءً انتقامياً جائراً، وإنما يجزيهم بحسب جريمتهم سواءً بسواء!

﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ

شَيْءٍ ۚ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٥﴾

وَنُسُكِي: عبادتي كلها .

إِلاَّ عَلَيْهَا: إلا ذنبا محمولا عليها عقابه .

وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ: لا تحمل نفس آثمة .

خَلاَئِفَ الأَرْضِ: يخلف بعضكم بعضا فيها .

لقد أنزل الله في صورة القرآن الكريم دينه النقي الخالص، ذلك الذي كان قد أعطاه سيدنا إبراهيم ومن عداه من الأنبياء والرسل الكرام - عليهم صلوات الله وسلامه - فليتمسك الآن بهذا الدين كل شخصٍ يريد أن يدخل في رحمة الله ونصرته ؛ فلْيخلص عبادته لله تعالى وحده ولْيقم صلته بالله على مستوى التضحية، وله أن يهب حياته كلها لله، ولا يموت إلا وهو مسلم خاضع بكل كيانه لله - سبحانه وتعالى.

إن هذا الكون العظيم بكل أجزائه قائم على دين الطاعة الإلهية هذا ، إذاً فكيف يمكن للإنسان أن يختار لنفسه سبيلاً آخر غيره، وكيف يمكن أن يؤدي التمرد على الله بأحد الناس إلى طريق النجاح في عالمٍ تسوده طاعة الله؟ ، وهذا أمر يهم كل شخصٍ على الانفراد، إذْ لا أحد يشارك أحداً في إنعامه ولا في عقابه، فينبغي للمرء أن يكون بالنسبة لهذا الأمر جاداً تماماً ، كما يكون أحد الناس فى الدنيا غايةً فى الجدية بالنسبة لقضيةٍ من قضاياه الذاتية.

ونظام هذا العالم يجري على أن شخصاً يذهب من هنا فيحل محله شخص آخر،

وتُدفع أمة إلى الوراء، فتتقدم مكانها أمة أخرى، وتستولي على موارد الأرض ووسائلها، وهذه الواقعة تذكرنا بين الحين والحين بأن أية سلطةٍ هنا ليسُت بدائمةٍ، غير أن البشر حين تُتاح لأحدٍ منهم الفرصة للتمكن في الأرض فلا يلبث أن ينسى عاقبة الذين خلوا من قبل، ويلجأ إلى اختلاق ألوان من الدلائل الباطلة لتبرير ظلمه وطغيانه، ولكن عندما يجرد الله - عز وجل - الحقائق ويبرزها كما هي، فسوف يرى المرء أنه لم تكن ثمة قيمة ما لأقاويله تلك التي كان يعتبرها أقوى الأدلة لتبرير موقفه.

إن سبب طغيان المرء وبغيه في الدنيا يرجع في - أغلب الأحيان - إلى اعتباره الأشياء الدنيوية المتاحة له إنعام الله عليه، على حين أن كل ما يتاح لأحدٍ في هذه الدنيا فإنما يكون على وجه الابتلاء والاختبار وليس على وجه الإنعام والتشريف، ولو أن المرء حسب أشياء الدنيا إنعاماً وتشريفاً لتولد في داخله الفخر والاعتزاز، ولو أنه اعتبرها ابتلاءً وامتحاناً لتولد في داخله العجز والتواضع، ونفسية الفخر تبعث على البغي والعناد ، ونفسية العجز تبعث على الطاعة والانقياد!

سورة الأعراف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ الٓمٓصٓ ﴿١﴾ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ﴿٤﴾ فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٥﴾ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ ۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴿٧﴾ وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ۚ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ﴾

حَرَجٌ مِّنْهُ: ضيق من تبليغه خشية التكذيب .

وَكَم مِّن قَرْيَةٍ: كثيرا من القرى أهلكنا .

بَأْسُنَا: عذابنا .

بَيَاتاً: بائتين أو ليلا وهم نائمون .

هُمْ قَائِلُونَ: مستريحون نصف النهار (القيلولة) .

دَعْوَاهُمْ: دعاؤهم وتضرعهم .

ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ: رجحت حسناته على سيئاته .

خَفَّتْ مَوَازِينُهُ: رجحت سيئاته على حسناته .

obeikandl.com

إن كتاب الله ، من حيث حقيقته الأصلية ، موعظة ، غير أنه لا يكون موعظةً بالفعل إلا لأولئك الأفراد القلائل الذين يكون استعدادهم الفطري حياً . أما بالنسبة لبقية الناس فإنما يبقى دوره منحصراً في نطاق الإنذار والتخويف لهم من تلك العاقبة المشئومة التي يتقدمون نحوها بسبب بغيهم وعنادهم والداعي يتلهَّف ولا يهدأ له بال حين يرى أن الشيء الذي يظهر له حقاً في أكمل صورة يرفضه معظم الناس حاسبين إياه باطلاً محضاً ، والأمر الذي هو أهم من الجبال لا يعبأ به القوم كأنه لا حقيقة له ولا يستند إلى أساسٍ !! إن هذا العالم هو عالم الامتحان ، وقد أتيحت هنا الفرصة لكل أحدٍ ألا يؤمن بأي أمرٍ لا يرغب في الإيمان به، وبإمكانه أيضاً أن يجد لتبرير إنكاره ورفضه بعض الألفاظ الجميلة .غير أن هذا الوضع عابر لا يدوم ، فحين تنتهي فترة الامتحان المحددة ينكشف فجأةً أن قول الداعي كان أقوى وأكثر ثباتاً ، وحينئذٍ سيتضح بجلاءٍ أن الدلائل التي كانوا يقدمونها رداً على أحاديث الداعي إلى الحق إنما كانت محض مغالطةٍ وسفسطةٍ ، ولم تكن تعتمد على أي استدلالٍ .

الأشياء التي تُكسب الإنسان وزناً أو ثقلاً في هذه الدنيا هي أن تتجمع حوله المباهج المادية ، وأن يكون هو بارعاً في فن إثارة الطوفانات الكلامية ، وأن تكون جموع غفيرة من الجماهير قد انضمت إليه ، وبما أن هذه المظاهر والأسباب لا تقترن عادةً بشخصية الداعي إلى الحق ، تصبح كلمته في نظر أصحاب الدنيا خفيفةً وكلمة معارضيه ثقيلةً ، بيد أن القيامة حين تمزق الحجب الاصطناعية سينقلب الوضع رأساً على عقبٍ ، وعندئذٍ سيكون الثقل كله إلى جانب الحق وحده ، ويبقى الباطل عارياً من أي قيمةٍ أو دليلٍ

﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ۖ قَالَ أَنَا۠

خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾

مَكَّنَّاكُمْ: جعلنا لكم مكانا وقرارا .

مَعَايِشَ: ما تعيشون به وتحيون .

مَا مَنَعَكَ: ما اضطرك أو ما دعاك وحملك .

أَنظِرْنِي: أخرني وأمهلني في الحياة.

فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي: فبما أضللتني .

لأَقْعُدَنَّ لهم: لأترصدنهم ، لأجلسن لهم.

مَذْءُوماً: مذموما أو معيبا أو محقرا لعينا .

مدْحُوراً: مطرودا مبعدا .

إن كل ما أعطاه الله للإنسان في هذه الدنيا ليقدم رد فعله النفسي عليه في صورة الشكر ، غير أن هذا هو الشيء الذي لا يقدمه المرء أمام ربه، والسبب في ذلك هو أن الشيطان يبعده عن نفسية الشكر ، عن طريق إيقاظ مشاعر أخرى في داخله تسيطر عليه.

ومن خلال قصة آدم وإبليس يتبين أين يدور الصراع بين الهداية والضلالة في هذا العالم ، إن هذا الصراع يحتدم حيث تستيقظ في داخل المرء مشاعر الحقد والكبرياء ،

obeikandi.com

ففي رحاب عالم الامتحان هذا يحدث مرةً وأخرى أن شخصاً يتفوق على شخصٍ آخر، فقد يحصل بعض الناس من الثراء والعزة على حظٍ أوفر من غيره، وقد ينشب النزاع بين شريكين في أمرٍ ما، بحيث يقول أحد الطرفين: إن دفع الحق إلى صاحبي يعني أن أحط من شأني أنا، وقد يعلن الله على لسان أحد الناس عن صدقٍ ما، مما يجعله يبدو متفوقاً على الذين كانوا قد فشلوا في الوصول إلى ذلك الصدق على طول بحثهم عنه، وفي مناسباتٍ كهذه لا يلبث الشيطان أن يبعث في داخل المرء نفسيات الحقد والتكبر، فهو لا يكاد يستعد للاعتراف بفضل أخيه لسيطرة عاطفةٍ «أنا خير منه» على ذهنه .وهذا هو اتباع سبيل الشيطان عند الله تعالى، فالشخص الذي اختار طريق الحقد والتكبر في مثل هذه المناسبات قد استحق ذلك المصير الجهنمي الذي سبق أن قُدر للشيطان. أما الشخص الذي كبح جماح العواطف التي أثارها الشيطان في داخله في مثل هذه المناسبات فقد أثبت أنه جدير بأن يتم إسكانه في حدائق الجنة .

كل ما ينال الإنسان من خيرٍ في الحياة إنما هو من عند الله تعالى، ومن ثم فإن الاعتراف بفضيلة أحدٍ هو في الأصل اعتراف بعدالة قسمة الله، وعدم الاعتراف بفضيلته يعني رفضه قسمة الله، وهكذا حين يخضع أحد الناس أمام غيره بناءً على حقٍ من الحقوق، فإنه لا يخضع أمام أي بشرٍ، بل هو يخضع أمام الله ؛ لأنه إنما يفعل ذلك امتثالاً لأمر الله، وليس نظراً للامتياز الذاتي الذي يتمتع به ذلك الرجل .

﴿ وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ فَكُلَا مِنۡ حَيۡثُ شِئۡتُمَا وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسۡوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ لِيُبۡدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنۡهُمَا مِن سَوۡءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنۡ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيۡنِ أَوۡ تَكُونَا مِنَ ٱلۡخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ ﴾

فَوَسْوَسَ لَهُمَا: ألقى إليهما الوسوسة.

مَا وُورِيَ: ما ستر وأخفي وغطى عنهما .

سَوْءَاتِهِمَا: عوراتهما .

لقد كانت الجنة على اتساع أرجائها مفتوحةً لآدم وزوجته ، وكانت زاخرةً بصنوف الأشياء ، وقد أتيحت لهما الحرية الكاملة للتمتع بها كيفما شاءا ، وفي وسط أشياء مباحةٍ لا حصر لها كان هناك شيء واحد فقط مُنعا من استخدامه ، وقد هجم الشيطان عليهما من هذا المكان المحظور ، حيث أكد لهما عن طريق الوسوسة : إن الشيء الذي نُهيتما عنه هو أهم أشياء الجنة إطلاقاً ، وهو ذاته مكمن كل أسرار القدسية والخلود، فما لبثا أن تأثرا بإيحاءات إبليس المستمرة ، وأكلا ثمرة الشجرة المحظورة ، ولكنهما حين فعلا ذلك ظهرت النتيجة على عكس ما توقعاه ، فقد جرّدهما عصيانهما هذا من ثوب حماية الله ، وبقيا بلا معين ولا ناصرٍ في عالمٍ ،كانا من قبل يتمتعان فيه بكل أنواع التسهيلات والحمايات .

ويتضح لنا من هذا : أن السلاح الأمضى بيد الشيطان الذي بواسطته يتمكن من إغواء الإنسان وإقصائه من رحمة الله ونصرته ، هو تهوينه من شأن الرزق الحلال ، على كثرته و انفساح مجاله ، وتزيينه له تلك الأشياء التي تم تحريمها ، حتى يقنعه بأن كل الفوائد العظيمة والمصالح الكبرى إنما تكمن في هذه الأشياء!

﴿ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾

فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ: فأنزلهما عن رتبة الطاعة بخداع.

وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ: شرعا وأخذا يلزقان .

لقد بُعث آدم والشيطان إلى هذه الأرض عدوين لبعضهما ، ولا يزال هذا الصراع يدور بينهما إلى يوم القيامة، فالشيطان يحاول دوماً أن يدعو الإنسان إلى طريقه هو ، وبالتالي يحرمه أيضاً من رحمة الله كما حرم هو من رحمة الله ، وبالمقابل يتعين على الإنسان أن يعمل على إفشال خطة الشيطان ، ويبادر بالاستجابة لنداء الله صارفاً نظره عن نداء الشيطان . وهذا الصراع القائم بين آدم والشيطان يظهر عملياً بصورة تحوّل البشرية إلى طائفتين، بحيث يقع بعض الناس فريسةً لترغيبات الشيطان فينضمون إلى جانبه، بينما يقوم آخرون بتلبية نداء الله مما يدفع اتباع الشيطان إلى أن يتناولوهم بالتشهير والنيل منهم ، ويتخذوا كل أنواع التدابير لعرقلة مسيرتهم .

وقد شوهد في كل عصرٍ أن أنصار الحق المخلصين الذين يكون عددهم دائماً قليلاً ، يتعرضون لعداوات بالغة القسوة ، والسبب في ذلك يرجع إلى إجراءات الشيطان المعادية، فإنه يقوم بإغراء الناس ضد المحب المخلص للحق ، وبأساليب شتى يملأ صدور القوم بنيران الكراهية والنفور منه ، فلا يلبث هؤلاء أن يصبحوا أداةً طيعةً بيد الشيطان ، ويأخذوا في إيذاء مثل هذا بكل ما يملكون من حولٍ وطولٍ .

ولقد كانت جريمة الشيطان الأصلية هي عدم الاعتراف ، والشيطان يحاول بدوره أن يولّد مزاج عدم الاعتراف هذا في داخل كل آدمي .

﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ٢٦ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ٢٧ ﴾

أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ: أعطيناكم ووهبنا لكم .

يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ: يستر ويداري عوراتكم .

وَرِيشاً: لباس زينة أو مالا .

وَلِبَاسُ التَّقْوَى: الإيمان وثمراته .

لاَ يَفْتِنَنَّكُمُ: لا يضلنكم ولا يخدعنكم .

يَنزِعُ عَنْهُمَا: يزيل عنهما ،استلابا بخداعه .

وَقَبِيلُهُ: جنوده ، أو ذريته .

لقد أنشأ الله نظام هذا العالم بأن صارت أشياءه الظاهرية علاماتٍ على حقائقه الباطنية ، بحيث يستطيع المرء أن يصل إلى الحقائق الخفية عبر التأمل في الأشياء الظاهرية ، ويدخل اللباس في إطار هذه الأشياء. فقد منح الله الإنسان لباساً يحميه ويزيده جمالاً ووقاراً ، مما يشير إلى أن كيان المرء الروحي هو الآخر بحاجةٍ إلى لباسٍ كذلك ، وذلك اللباس هو التقوى ، إن التقوى لباس معنوي للمرء يقيه – من ناحيةٍ – من هجمات الشيطان ، ومن ناحيةٍ أخرى يجمل باطنه تجميلاً يجعله جديراً بأن يتم إسكانه في عالم الجنة اللطيف والنفيس.

وما لباس التقوى هذا ؟ هو خشية الله ، والاعتراف بالحق ، وأن تتخذ لنفسك ولغيرك معياراً واحداً ، وأن تعتبر نفسك عبداً ، وتجعل من التواضع شعاراً لك ، وألا تزال متوجهاً نحو الآخرة بدلاً من الانغماس في الدنيا ، والمرء حين يختار هذه الأشياء فإنه يكسو وجوده الداخلي ، ولو أنه اتخذ موقفاً مخالفاً لذلك فإنه يعري داخله ، إن الجسد الظاهري يستره اللباس المصنوع من القماش ، والجسد الباطني يستره لباس التقوى .

إن طريقة الشيطان لإضلال المرء هي أنه يغريه ويفتنه ، بأن يُريه شجرة الله الممنوعة

مصدر كل خيرٍ ، وهو يأتي إليه بطرقٍ بريئةٍ لا يخطر على بال المرء أن يأتي إليه الضلال منها. إن الشيطان خبير بكل المواطن الحساسة في نفس المرء ، وهو يهجم عليه من خلالها ، فقد يبين نظريةً باطلةً ما في كلماتٍ جميلةٍ وعباراتٍ براقةٍ ، وقد يُظهر له حقيقةً جزئيةً في صورة حقيقة كلية شاملة ، وقد يحمل الناس على الاندفاع وراء أشياء عادية تافهةٍ بوصفها كنز الفوائد والمنافع ، وقد يصف إحدى الحركات غير المجدية بأنها مكمن أسرار الرقي والتقدم ، وقد يعرض بعض الأعمال التخريبية الهدامة بشكل عملٍ إصلاحي بناءٍ .

ومن الذين ينجح الشيطان في فتنتهم وإغوائهم ؟ إنه ينجح في إغواء الذين يفشلون في إقامة الدليل على إيمانهم في مواقع الامتحان والاختبار ، الذين لا يتدبرون آيات الله ، ولا يستعدون لفهم الحديث في لغة الدلائل والبراهين ، والذين لا تتسع صدورهم لإيثار مقتضيات الحق على اتجاهاتهم الذاتية ، والذين لا يبدو لهم الصدق صدقاً إذا لم يكن منطوياً على ضمانٍ لمنافعهم ومصالحهم الشخصية ، والذين لا يروقهم ذلك الحق الذي يريد أن يعلو عليهم دون أن يُعلي عليه شيء مهما كان!

﴿ وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَـٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۚ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَـٰلَةُ ۗ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَـٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾

فَعَلُوا فَاحِشَةً: أتوا فعلة متناهية في القبح .

بِالْقِسْطِ: بالعدل وهو جميع الطاعات والقرب .

وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ: توجهوا إلى عبادته مستقيمين .

عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ: في كل وقت سجود أو مكانه .

كان العرب في الجاهلية يطوفون بالكعبة عراةً ، وكانوا يؤيدون ذلك قائلين : إن عبادة الله ينبغي أن نقوم بها على الوضع الفطري منزهين عن كل الأقذار والأرجاس الدنيوية، على حين أن العُرْي فاحشة سافرة يمكن إدراك قبحها وشناعتها بالعقل ، وهكذا فقد يتخذ المرء عقيدة قائلةً بأن الله - على الرغم من طغيان المرء وخلوه من العمل الصالح - سيمنحه جوائز وإنعاماتٍ بناءً على شفاعة الشافعين له ، على حين أنه تعالى لن يفعل ذلك بالنسبة لعباده الطاغين لمجرد قول قائلٍ ما، وثمة أعمال تافهة غامضة لا يمكن من خلالها بناء بيت واحدٍ في هذا العالم ، يمارسها المرء راجياً أنها ستشيد له قصوراً فخمةً في عالم الآخرة . وضجيج الألفاظ والشعارات الذي لا يكاد يؤثر حتى في إنبات شجرةٍ واحدةٍ في رحاب هذا العالم ، ربما يربط به المرء هذه الأمنية الحالمة بأنه يُنبت له حدائق الجنة !

والمراد من القسط ذلك الموقف المنصف العادل الذي يُعد كاملاً على كل المقاييس ، والذي يكون على ما ينبغي أن يكون عليه تماماً، إن عبادة الله هي إحدى رغبات الإنسان المتأصلة في فطرته ، حيث إنه يريد أن يلقي بنفسه بين يدي أحدٍ باعتباره أعلى وأرفع من الجميع ، فالقسط في هذا الشأن هو أن يخلص المرء عبادته لله تعالى وحده الذي هو خالقه وربه ، والإنسان يريد أن يرفع أحد البشر إلى مقامٍ يصبح معه أساساً لثقته واعتماده ، وسيكون القسط بهذا الخصوص أن يجعل المرء من الله تعالى أساساً لثقته واعتماده في الحياة ، الذي وحده يملك كل أنواع الطاقات والقدرات ، وذلك الإيمان بحياةٍ بعد الموت هو القسط نفسه، فإن المرء حين يولد يتخذ صورة الوجود من العدم ، ولذا فالإيمان بالحياة الثانية بعد الموت هو إيمان بالحقيقة ذاتها التي سبق أن مر بها كل آدميٍ عند خلقه الأول .

ولإنكار الداعي إلى الحق يستند المرء إلى الشيوخ الأقدمين ، والشيوخ الأقدمون هم

رجال تكون عظمتهم قد تأسست تاريخياً ، ويصبح كونهم على الحق أمراً متفقاً عليه لدى الجميع ، ومن جانبٍ آخر يكون داعي الحق المعاصر رجلاً جديداً بحيث لم يقترن به تصديق التاريخ بعد ، والمرء ينظر إلى الشيخ القديم مع تاريخه بينما ينظر إلى الداعي الجديد بدون تاريخه ، فهو لا يلبث أن ينكر داعي الحق استناداً إلى الشيوخ الأقدمين ، ويحسب أنه على عين الهداية ، غير أن سوء فهمٍ من هذا النوع لن يقوم عذراً لضلاله عند الله - عز وجل ، إنه اتباع الشيطان باسم الله ، وليس اتباع الله في حقيقة الأمر .

﴿ ۞ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ٣١ قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ٣٢ قُلۡ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلۡإِثۡمَ وَٱلۡبَغۡيَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَأَن تُشۡرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٣٣ ﴾

خُذُوا زِينَتَكُمْ: البسوا ثيابكم لستر عوراتكم .

الفَوَاحِشَ: كبائر المعاصي لمزيد قبحها .

وَالإِثْمَ: ما يوجبه من سائر المعاصي .

وَالْبَغْيَ: الظلم والاستطالة على الناس .

سُلْطَاناً: حجة وبرهانا .

كان هناك في عهد الجاهلية قوم إذا خرجوا للحج حرموا على أنفسهم بعض الأشياء كحليب الشاة أو لحمها، ظانين أنهم يمارسون بذلك عملاً غايةً في الورع والتقوى، وهذا نوع من الضلال مازال البشر مصابين به في كل عصرٍ. وأمثال هؤلاء

الأفراد لا يطبقون الدين ومقتضياته على حياتهم الحقيقية بكل نواحيها ، اللهم إلا أنهم يبالغون في الاهتمام بممارسة بعض الأعمال الفارغة وغير المتعلقة بجوهر الدين ، لكي يتظاهروا بأنهم متمسكون بدين الله حتى إلى حد الجزئيات العادية ، وأنهم قائمون على رضا الله إلى حد الأداء الكامل.

إن رضا الله الأصلي بالنسبة للإنسان يكمن في أن يجتنب المرء الإسراف ، ولا يتعدى حدود الله المقررة ، ولا يحل ما حرمه الله ولا يحرم ما أحله الله ، ويبتعد عن الفواحش وعن الأفعال القبيحة التي يدل العقل العام على قبحها وشناعتها ، ويتخلى عن موقف البغي ، وأن يقبل بالحق كلما ظهر أمامه وبغض النظر عن كل شيءٍ آخر سواه ، ويطهّر نفسه من أدران الشرك ، ولا يقيم مع أحدٍ غير الله - سبحانه وتعالى- تلك العلاقة العليا - العبادة - التي هي حق الله الواحد وحده، ولا يفتري على الله كذباً بأن يبتدع من تلقاء نفسه طريقةً ما، ويعزوها إلى الله تعالى بدون دليلٍ ، وأن يعيش في رحاب هذا العالم كعبدٍ لله بمعنى الكلمة ، بحيث لا يتخذ أي موقفٍ أو يخطو أية خطوة لا تليق به بصفته عبداً .

إن النعم التي سيفوز بها أحد الناس في الآخرة إنما يفوز بها كجائزةٍ وإنعامٍ ، ومن ثم فإنها ستكون هناك خاصةً لأولئك العباد وحدهم الذين سيسمح الله لهم بالدخول في الجنة .. وأما ما يحصل عليه أحد من النعم في هذه الدنيا فإنما يحصل عليها لفترةٍ محدودةٍ وعلى وجه الابتلاء ، ولذا فقد ينال هنا كل أحدٍ قسطاً من نعم الأرض يتناسب مع مادة امتحانه، وليس البعد عن مادة الامتحان هو الطريق إلى النجاح في هذا الامتحان ، بل الأسلوب الصحيح هو أن يستخدمها المرء وفقاً للحدود المقررة ، وأن يكون جوابه على نيله إياها هو الشكر وليس الاستغناء والبغي والعناد!

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۖ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾
يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي ۙ فَمَنِ اتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا

خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴿٣٧﴾

أَيْنَ مَا كُنْتُمْ: أين الآلهة الذين كنتم.

إن فرصة العمل في العالم الراهن متاحة للإنسان ما لم تنته مدة امتحانه المحددة، وتنتهي مدة امتحانه بانتهاء عمره، غير أنه ليس هناك من حدٍ من هذا النوع لنفاذ القضاء الإلهي بالنسبة لأمةٍ من الأمم، وإنما يتم تحديد ذلك على أساس نوعية ما تتعامل به مع الحق بعد أن يظهر أمامها. ويصدر قرار الجنة أو الجحيم لشخصٍ ما على أساس موقفه الذي يتبناه تجاه الحق حينما يظهر أمامه، وإذا ما ظهر أي حقٍ مصحوباً بدلائل يشهد لصدقها عقل المرء نفسه فكأنما قامت حجة الله عليه بالتمام، وعلى الرغم من ذلك فلو أن المرء ما زال يرفض الاعتراف بالحق فإنما يرجع السبب في ذلك إلى الكبر والغطرسة لا غير، إن الشعور بالاستعلاء هو الذي حال بينه وبين رضاه بأن يجعل من الحق كبيراً دون ذاته هو، وليس لرجلٍ كهذا من مصير عند الله تعالى سوى الجحيم.

وإذ ينكر المرء الحق فإنما ينكره بناءً على ثقةٍ ما، ومن الناس من تكون الثروة والسلطة موضع ثقته، ومنهم من يكون معتمداً على ما نال من عزةٍ ونفوذٍ واسعٍ وسمعةٍ عريضةٍ، ومنهم من يكون اعتماده على أن أموره جارية على نحوٍ مستقيم لدرجة أنه لن يخسر شيئاً ذا بالٍ لقاء إنكاره للحق، ومنهم من يكون معتزاً بأن ذكاءه قد اكتشف ألفاظاً رائعةً لإقامة الدليل على أن حديثه هو حديث الله بعينه، بيد أن هذا سوء فهمٍ خطيرٍ جداً وقع فيه هذا الإنسان، حيث إنه قد اعتبر أشياء هي موضوع

الابتلاء موضع ثقة واعتمادٍ ، وفي يوم القيامة حين تنقطع عنه كل هذه الاعتمادات الكاذبة ، فلن يصعب عليه حينئذٍ أن يدرك أنه قد ظل ينكر الحق لمجرد العناد والطغيان .

﴿ قَالَ ٱدْخُلُوا۟ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ ۖ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُوا۟ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ ۖ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾

ادَّارَكُوا فِيهَا: تلاحقوا في النار واجتمعوا فيها .

أُخْرَاهُمْ: منزلة وهم الأتباع والسفلة .

لأُولاهُمْ: منزلة وهم القادة والرؤساء .

عَذَاباً ضِعْفاً: مضاعفا مزيدا .

المراد من الـ ((أمة)) في هذه الآية القادة المضلون ، والمراد من ((أختها)) الأتباع الضالون من العوام، وإنه سيكون مشهداً عجيباً جداً إذْ يُلقى بقادة كل عصرٍ المنحرفين وأتباعهم المنحرفين معاً في نار جهنم . ولقد كان هؤلاء أولياء فدائيين في الدنيا ، فكان القادة يحترمون كل طموحات أتباعهم ، وكان العوام قد اتخذوا من قادتهم أبطالاً، ولكن حين تمسهم نيران جهنم ترتفع عن عيونهم كل الحجب الاصطناعية ، وسيأخذ بعضهم حينئذٍ ينظر نحو الآخر على هيئته الأصلية ، وسيقول الأتباع لقادتهم: عليكم اللعنة ، ما أسوأ ما كانت قيادتكم، حيث شغلتنا بألاعيب وقتيةٍ باطلةٍ ، لمدةٍ يسيرة من الزمن ، وأدت بنا آخر الأمر إلى هذا الدمار الرهيب .. وسيرد القادة على أتباعهم قائلين: لقد كنتم نتطلعون إلى دينٍ يتفق وهواكم ولم تتبعونا إلا لأن ديناً كهذا كان

متوفراً لدينا ، وإلا فقد كان هناك بعض عباد الله يدعونكم إلى طريق النجاح المستقيم ، وقد قرع نداؤهم أسماعكم ، غير أنكم لم تلقوا له بالاً .

سيقول القادة للأتباع: إنكم لستم بأفضل منا من أي ناحيةٍ ، فقد أقمنا صروح قيادتنا من أجل تحقيق رغباتنا الذاتية ، وكذلك أنتم إنما وقفتم إلى جانبنا من أجل الوصول إلى رغباتكم الذاتية لا غير ، فكلنا إذن سواء من حيث الحقيقة ؛ ولذلك فلابد من أن تذوقوا العذاب نفسه الذي قد كُتب علينا بسبب أعمالنا .

وطائفة الأتباع ستشكو إلى الله قادتها قائلةً : إن هؤلاء كانوا قد أضلونا ، فيجب أن يكون عذابهم ضعف ما نلقاه من عذابٍ ، فيقال لهم : إنكم كلكم تلقون عذاباً ضعفاً ، فالتابع والمتبوع سواء!! والحقيقة أن أي عذابٍ يلقاه أحد في جهنم سيبدو له شديداً غليظاً لدرجة أنه يحسب لا أحد هناك سواه يكابد ألماً أشد مما يكابده ، فكل شخصٍ يعتبر الألم الذي يعاني منه أشد الآلام إطلاقاً .

إنك ترى القادة النفعيين وأتباعهم هنا في هذه الدنيا وهم أصفياء أولياء بعضهم لبعض ، فكل أحدٍ منهم يملك ألفاظاً رائعةً وألقاباً فخمةً للآخر ، وكل أحدٍ ساعٍ وراء خير الآخر ، غير أنهم سيصبحون أعداءً متناكرين في الآخرة ، يكره بعضهم بعضاً ، ويود كل أحدٍ أن يقذف بالآخر في عذابٍ أشد وأقسى!

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٤١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٤٢﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَـٰرُ ۖ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَـٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ۖ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا

بِٱلْحَقِّ وَنُودُوٓاْ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾

يَلِجَ الْجَمَلُ: يدخل الجمل .

سَمِّ الْخِيَاطِ: ثقب الإبرة .

مِهَادٌ: فراش ، أي مستقر .

غَوَاشٍ: أغطية كاللحف.

وُسْعَهَا: طاقتها ما تقدر عليه .

غِلٍّ: حقد وضغن وعداوة.

لماذا تستيقظ في نفوس المدعوين مشاعر الاستكبار بإيذاء دعاة الله مما يدفعهم إلى إنكارهم وتكذيبهم ؟ إن السبب في ذلك يرجع إلى أن الداعي لا يكون إلى جانبه إلا ثقل الآية - أي الدليل وحده - بينما تحيط بالمدعو المباهج المادية ، والداعي يقف على أساسٍ من الدليل ، بينما يقف من يدعوهم على أساسٍ من الأسباب المادية ، وقوة الدليل لا تُشاهد بالأبصار بينما القوى المادية تُشاهد بالأبصار ، وهذا هو الفارق الذي يولد في نفوس الناس مزاج الكبر ، وبالتالي يصرف الناس أنظارهم عن الداعي باعتباره حقيراً بالقياس إلى أنفسهم.

ودخول أمثال هؤلاء الناس في رحمة الله مستحيل تماماً كما يستحيل دخول الجمل في ثقب الإبرة ، إنهم لم يحتفلوا بأمر الله ولذلك فقد قابلهم الله أيضاً بعدم الاحتفال بأمرهم، لقد أراهم الله تجلياته على يد داعيه ، وقد ظهرت أمامهم في صورة الدلائل الساطعة ، غير أنهم لم يقيموا لها وزناً ، ورفضوا الخضوع والاستسلام أمام الآيات الإلهية ، إذًا فكيف يمكن أن ينال أمثال هؤلاء حظاً من رحمات الله تعالى؟!

وسينتهي أمر أصحاب النار ، الذين كانوا أصفياء أولياء بعضهم لبعض في الحياة الدنيا، إلى أن يصبحوا هناك أعداء متناكرين فيما بينهم ، بحيث يلعن بعضهم بعضاً ،

بيد أن جو الجنة سيكون مختلفاً عن ذلك كل الاختلاف، حيث تكون قلوب الجميع هنا تفيض حباً وحناناً وعطفاً.

إن ماضي أصحاب الجحيم سيصبح عندهم بمثابة قصةٍ أليمةٍ ، بينما يكون ماضي أصحاب الجنة عندهم بمثابة ذكرى لذيذةٍ .. إن رجال السوء سيبدأون حياتهم القادمة وقد ملئت صدورهم حسرةً ويأساً ، ولن يكون ماضيهم بالنسبة إليهم سوى ذكريات مرةٍ يودون أن يمحوها من ذاكرتهم ولا يطيقون.. وأما الصالحون فما أحسن ما يكون حالهم ، فألسنتهم مشتغلة بذكر الله الذي كانوا قد اتخذوا منه موضع ثقتهم واعتمادهم ، وما أشد فرحهم وسرورهم إذْ يجدون ما أخبرهم به حملة لواء الحق في الدنيا ، حامدين لله شاكرين له تعالى على توفيقه إياهم للانضواء تحت راية دعاة الحق أولئك !

﴿ وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّٗا فَهَلۡ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمۡ حَقّٗاۖ قَالُواْ نَعَمۡۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنُۢ بَيۡنَهُمۡ أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ٤٤ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ كَٰفِرُونَ ٤٥ ﴾

فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ: ألم معلم ونادى منادي .

وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً: يطلبونها معوجة أو ذات اعوجاج .

لقد أثار بعض الناس في قديم الزمان تساؤلاً حول هذه الآيات قائلاً : كيف يمكن أن يصل صوت أصحاب الجنة إلى أصحاب الجحيم ، إذْ إن الجنة ستكون واقعةً فوق السموات العلى وتقع الجحيم تحت الثرى، غير أن هذا السؤال فقد مدلوله في عصر الراديو والتليفزيون هذا الذي نعيشه الآن ، فقد علم إنسان اليوم أنه لم يعد مستحيلاً أن ترى أحداً أو تستمع إلى صوته وأنت تبتعد عنه بمسافاتٍ شاسعةٍ ، والأمر الذي كان يبدو للإنسان القديم غير قابل للفهم والإدراك قد أصبح لدى إنسان اليوم ، وفي ضوء

تجاربه ومشاهداته نفسه قابلاً للفهم والإدراك تماماً .. ومن هذا نعلم أنه لا ينبغي أن نطلق حكماً ما على أي بيان من بيانات القرآن ، فيما لو تعذر فهمه علينا في ضوء ما يتوافر لدينا اليوم من معارف ومعلوماتٍ، فمن الممكن جداً أن يصبح ذلك الشيء غداً، بعد أن يقطع العلم أشواطاً فريدةً من الرقي والتطور ، معروفاً وفي متناول كل الأفهام .

ولا يعني ذلك طبعاً أن الاتصال بين أصحاب الجنة وأصحاب الجحيم في الآخرة سيتم عبر أجهزتنا الراهنة كالراديو والتليفزيون .. إلخ ، وإنما يعني ذلك فقط أن الاكتشافات الحديثة قد مكنتنا من أن نتفهم أن هناك في كون الله أسباباً يمكن من خلالها أن ينظر شخصان أحدهما نحو الآخر ، ويتحدث أحدهما مع الآخر وبينهما بون بعيد .

إن المرء لا يكاد يقيم وزناً لدليلٍ ما إلا إذا كان جاداً في شأنه ، فالذين لا يعطون أهميةً للآخرة لا يستطيعون أن يشعروا بمدى وزن الأدلة المتصلة بالآخرة كذلك ، إن أمر الآخرة يُعرض عليهم بدلائل قويةٍ وقاطعةٍ للغاية ، غير أن أذهانهم غير الجادة بشأنها لا تلبث أن تتلمس أية نقيصةٍ أو عيبٍ فيها ، وبسبب إثارة ألوانٍ من الاعتراضات فهم يقعون بأنفسهم في الشك والارتياب ويوقعون الآخرين أيضاً في الشك والارتياب كذلك .. وأمثال هؤلاء أشد وأشنع جرماً عند الله تعالى ، وإنهم لن يستحقوا في الآخرة سوى لعنات الله ، وإن كانوا يحسبون أنفسهم في الدنيا أولى الناس برحمات الله !

وإنه بإمكان المرء دوماً أن يشكك الناس في صدق أي دليلٍ ، مهما بلغ من القوة والقطعية باستخدام بعض الألفاظ الجميلة الخادعة ، فالعوام لا يستطيعون التمييز بين دليلٍ حقيقيٍ وبين نكتةٍ لفظيةٍ ، ومن ثم فحين يسمعون مثل هذه الأحاديث ينفرون من الحق ، ولكن أبعد وأقصى ما يكون من رحمات الله في اليوم الآخر هم الذين ينفرون الناس من الحق عن طريق افتعال اعتراضاتٍ ونقائص من هذا النوع على الرغم من

تمتعهم بصلاحية الفهم والإدراك .

﴿ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ ۚ وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّۢا بِسِيمَىٰهُمْ ۚ وَنَادَوْا۟ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۚ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُوا۟ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَىٰهُمْ قَالُوا۟ مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ ۚ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾

وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ: حاجز ، وهو سور بينهما .

الأَعْرَافِ: أعالي هذا السور .

بِسِيمَاهُمْ: بعلامتهم المميزة لهم .

يستوي المؤمن والكافر في هذا العالم في التمتع بنعم الله والتعرض لشدائده التي يبتلي بها عباده ، ولأن هذا الأمر لن يجري على هذا المنوال في الآخرة .. فسيقام هناك «حاجز» بين كلا الفريقين ، فلن يشم الكفار رائحةً من النعم المتاحة للمؤمنين هناك ، وكذلك لن يمتد أثر ما إلى أهل الجنة - المؤمنين - للآلام التي يكابدها الكافرون هناك .

العُرف يعني في اللغة العربية: ما ارتفع وعلا من مكانٍ ونحوه ، فمعنى أصحاب الأعراف هم أصحاب العلو والارتفاع، والمراد بهم طائفة الأنبياء والدعاة ، الذين قاموا بإبلاغ البشرية برسالة الحق في مختلف الأعصار والأمصار .. وفي يوم القيامة حين يُحاسب البشر ويكون الكل قد علم ما هو المصير الذي ينتظره ، ويكون ما كان الداعي إلى الحق يقوله في الدنيا قد تحقق فعلاً وبصورةٍ نهائية ، فحينئذٍ يخاطب كلاً من الدعاة أمته ، من على منصةٍ عاليةٍ سيتم إعدادها لهم في الآخرة بإذن الله تعالى ، وسيتوجهون

بخطابهم أولاً إلى الذين آمنوا بهم ، وهم لا يكونون قد دخلوا الجنة بعد ، إلا أنهم سيكونون من الراغبين فيها.

ثم تصرف أبصارهم من بعد ذلك نحو الذين كذبوا بهم ، فحين يرون ما هم فيه من سوء الحال ووخيم العاقبة يتضرعون إلى الله قائلين : يا ربنا! لا تضمنا إلى زمرة الظالمين هؤلاء!! سيعرفون زعماء الكفرة والمنكرين بسمت وجوههم ويقولون لهم: إن كثرة الأعوان والأنصار ووفرة المال والمتاع التى كنتم تعتزون بها والتي بسببها كذبتم بما أتينا به من رسالة الحق ، لم تكد تغني عنكم اليوم شيئاً !

إن المنكرين للحق يعيشون في ظل نظام العصر القائم ، وهم لذلك يكونون دوماً أرسخ قدماً وأوسع نفوذاً في هذا العالم .. وعلى العكس من ذلك فالذين يناصرون دعاة الحق، يبعث الجاحدين المنكرين للحق على الاستهزاء بالمؤمنين به نظراً لضعفهم واستكانتهم ، فهم يقولون - تهكماً وسخريةً : أهؤلاء هم الذين سيدخلون جنات الله الأبدية؟! وسيقول أصحاب الأعراف يوم القيامة لأمثال هؤلاء الناس : لتنظروا الآن ماذا كانت الحقيقة، وماذا كان ظنكم بها ، ومَنْ كُتب له النجاح والسعادة في نهاية، ومَنْ باء بالفشل والخيبة والخسران؟!

﴿ وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَهۡوٗا وَلَعِبٗا وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ فَٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰهُمۡ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوۡمِهِمۡ هَٰذَا وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ ۝ ﴾

أَفِيضُوا عَلَيْنَا: صبوا أو ألقوا علينا .

وَغَرَّتْهُمُ الحَيَاةُ الدُّنْيَا: خدعتهم بزخارفها وزينتها .

نَنسَاهُمْ: نتركهم في العذاب كالمنسيين .

وَمَا كَانُوا: وكما كانوا.

الدنيا مائدة زاخرة بنوعين من الأغذية ؛ أحدهما دنيوى ، وثانيهما أخروي .. ومن الناس مَنْ يكون غذاء روحه أن يجد ذاته تحظى بشهرةٍ واسعةٍ وقبول عامٍ ، وهو يمتلئ غبطةً وسروراً بوجود مباهج الدنيا وزينتها حول نفسه ، ويعد نفسه سعيداً ناجحاً بامتلاك الوسائل والأسباب المادية.

إن إنساناً كهذا قد ذهل عن الله والآخرة ، فإذا عُرض عليه حديث عن الله تجاوز عنه لاعتباره إياه غير ذي أهميةً أو خطرٍ ، وإنه يتعامل معه تعاملاً عفوياً عابراً كما لو أنه ليس بأمرٍ جدي ، بل هو محض لهوٍ ولعبٍ .

وليس لشخصٍ كهذا نصيب ما في نعيم الآخرة ، فإنه لم يُربّ في داخله إلا روحاً تستمد غذاءها من أشياء الدنيا وحدها ، إذاً فكيف يمكن أن تتغذى روحه بأشياء الآخرة؟! فالإنسان الذي لم يعش اليوم في الآخرة ، لن تكون الآخرة مصدر حياةٍ له غداً كذلك ، أما الإنسان الآخر فهو الذي ظل مستغرقاً في التأمل في الحقائق الغيبية ، والذي كانت روحه تستلذ ذكر الآخرة ، وكان غذاؤه يتمثل في أن يعيش في الله ولله ، ويصبغ كل حركاته وسكناته بصبغة الله ، وهذا هو الإنسان الذي ستكون الآخرة بالنسبة له مائدة الرزق الرباني ، حيث إنه سيحصل هناك على أسباب عيشه في حدائق الجنة ، إنه قد ظفر بالله في عالم الغيب ، ولذا فسوف يظفر بالله في عالم الشهود - الآخرة- كذلك .

لم ينس الإنسان الله في دنيا الله ، السبب في ذلك هو أن الله إنما يتجلى من خلال آياتٍ لا يدركها الذهن إلا بإعمال التفكير والتأمل ، بينما تكون أشياء الدنيا متواجدةً فيما حولنا بكل ما فيها من روعةٍ وفتنة ، ومن ثم فلا يلبث المرء أن يميل إلى الأشياء الظاهرية ويصرف نظرة عن الآيات الدالة على وجود الله جل جلاله. غير أن كل عملٍ مثل هذا هو تخلّ عن الآخرة في مقابل الدنيا ، والذي تخلى عن الآخرة قبل الموت ،

سيظل محروماً من الآخرة بعد الموت .وإذا أظهر الله أمام الناس أمراً حقاً ، فلم يعيروه أهميةً ما ، بل اتخذوا إزاءه موقفاً غير جادٍ ، فإن ذلك في الحقيقة يعني عدم إعارة الله أهميةً ما واتخاذ موقفٍ غير جادٍ بإزائه تعالى. إن المرء لا يخسر شيئاً ذا بالٍ في هذه الدنيا فيما لو أهمل الحق ، وهو لا يرى تلك الدلائل الإلهية التي يحملها الحق معه لكونها في الغيب ، وهذا الوضع يوقعه في سوء فهمٍ وغرورٍ. والذين يهملون الحق على هذا النحو، فإنما هم يعرّضون أنفسهم لخطر أن يهملهم الله تعالى أيضاً في اليوم الآخر ولا يبالي بهم !.

﴿ وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ۚ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ قَدْ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾

تَأْوِيلَهُ: عاقبة مواعيد الكتاب (القرآن) ومآلها من البعث والحساب والجزاء

يَفْتَرُونَ: يكذبون من الشركاء وشفاعتهم .

القرآن ينذرُ المرء بالحياة القادمة بعد الموت ، وهو ينبه البشر على حساب اليوم الآخر، ولكن المرء لا يتنبه ، وعلى أن أخبار القرآن هذه ليست محض أخبارٍ ، بل هي حقائق الكون الثابتة ، بيد أنها لم تظهر بعد في صورة الوقائع، فهي لم تزل مستترةً وراء حجاب المستقبل ، الأمر الذي يجعل الإنسان الغافل يظن أن هذه أقوال تُعاد ، فلا يلبث أن يعرض عنها لاعتباره إياها غير ذات أهميةٍ .. غير أن هذه الأخبار جاءت من عند الله الذي هو خبير بكل صغيرٍ وكبيرٍ ، والذين أبقوا على سلامة فطرتهم ، ولم تغش عيونهم الحجب الاصطناعية، ليجدون في أخبار القرآن هذه صدىً لنبضات قلوبهم ، وإنها لتبدو لهم ذات الشيء الذي كانت فطرتهم تبحث عنه من ذي قبل ، وبالتالي

سيصبح القرآن بالنسبة إليهم معين الحياة واليقين الذي لا ينضب .

وعلى العكس من ذلك حال أولئك الذين لا يأخذون إنذار القرآن بمأخذٍ جدي ، وسيظل هؤلاء غارقين في غفلتهم هذه حتى تفجأهم تلك الساعة الرهيبة التي ينبؤون بها، وسيرى المرء حينئذٍ فجأةً أنه قد أصبح عاجزاً مخذولاً من غير سندٍ ولا نصيرٍ ، وستفقد يومئذٍ تلك المسائل كل قيمتها التي كان مشغولاً بها لاعتباره إياها أكثر مسائل الحياة أهمية وقيمةً، وستتخلى عنه كل تلك الأشياء التي كانت موضع اعتماده وثقته في الدنيا ، كما سيظهر له أن الأماني التي كان يعيش فيها ليست سوى أماني باطلةٍ لا تغنى عنه فتيلاً .

إن قضية الآخرة لا تعدو اليوم أن تكون محض نظريةٍ ، وليست فيما يبدو ، أية قضيةٍ مصيرية أو حساسةٍ ، مما يجعل المرء لا يتناولها بما ينبغي من الجدية والاهتمام ، غير أن القيامة إذا انفجرت بكل أهوالها المروعة ، فسيجد كل امرئ نفسه حينذاك مضطراً للإيمان بما لم يكن يستعد للإيمان به قبلئذٍ .. وسيعلم المرء في ذلك الحين أن الأمر الذي كان يُعرض عليه من ذي قبل بلغة الدليل الهادي، كان هو الحق عينه ، ولكنه لم يتمكن من فهمه لكونه وقف منه موقفاً غير جادٍ.. وإذا تخلت عن المرء كل تلك الأشياء التي كانت موضع ثقته واعتماده في الحياة الدنيا، فسيود لو أنه رُدّ إلى الدنيا ثانيةً حتى يمارس حياةً صحيحةً مستقيمةً ، غير أن فرصة الحياة هذه لن تتاح لأحدٍ مرة أخرى!

﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَـٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾

اسْتَوَى عَلَى العَرْشِ: استواء بالمعنى اللائق به سبحانه.

يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ: يغطي النهار بالليل فيذهب ضوءه .

يَطْلُبُهُ حَثِيثاً: يطلب الليل النهار طلبا سريعا.

أَلاَ لَهُ الخَلْقُ: إيجاد جميع الأشياء من العدم .

وَالأَمْرُ: التدبير والتصرف فيها كما يشاء .

تَبَارَكَ الله: تنزه أو تعظم أو كثر خيره .

ادْعُوا رَبَّكُمْ: اسألوه واطلبوا منه حوائجكم .

تَضَرُّعاً: مظهرين الضراعة والذلة والاستكانة والخشوع.

وَخُفْيَةً: سرا في قلوبكم .

رَحْمَةَ اللهِ: إحسانه وإنعامه أو ثوابه .

إن الله خالق السموات والأرض وكل ما بينهما من موجودات ، ولقد كان بإمكانه تعالى أن يخلق هذه الموجودات كلها ويتركها مبعثرةً هكذا من غير تنظيم ولا تنسيقٍ فيما بينها .. لكنه تعالى ، بدلاً من ذلك ، تناول كل الأشياء بربط بعضها ببعض تحت نظامٍ حكيمٍ ومتكاملٍ للغاية .. ثم قام بإدارة هذا النظام البديع إدارة متكاملة ، تجعل كل جزء من أجزائه تعمل في سبيل المصلحة العامة.

والإنسان هو الآخر جزء صغير من هذا العالم ، فماذا ينبغي إذن أن يكون سلوكه في رحاب عالمٍ صالحٍ منظم كهذا ؟! ينبغي له أن يتبنى السلوك الصالح المنتظم الذي عليه سائر المخلوقات عداه .. فيجب عليه أن يدمج وجوده في مشروع الخالق نفسه الذي قد اندمجت فيه بقية الكائنات خاضعةً منقادةً .

إن سائر موجودات هذا الكون منضمة إلى تدبير الله إلى حد الإحسان - أي إتقان

الأداء للدور الذي نيط بكل واحدٍ منها - فينبغي للإنسان أيضاً أن يسلم نفسه لله ويخضع لمشيئته إلى حد الإحسان ، وهنا لا يتعدى أبداً أي شيء الحدود المقررة له ، فيتعين على الإنسان أيضاً ألا يتخطى حدود الحق والعدل الإلهية .

ثم إن الإنسان يتمتع - فوق ذلك - بخصائص النطق والشعور الإضافية المميزة له عما سواه .. ولذا فلا بد له من أن يظهر خضوعه واستسلامه لله على مستوى النطق والشعور وينبغي أن تتوغل معرفة الله داخل أعماقه لدرجة أن يأخذ لسانه يفيض بذكر الله مرة وأخرى، وأن يدعو الله تماماً كما يدعو العبد خالقه ومالكه ، وينبغي أن يكون إدراكه لألوهية الله عميقاً بحيث لا يوجد سبب لآماله أو مخاوفه غير الله عز وجل ، وإن ربط الخوف والطمع بالله تعالى وحده هو منتهى العبودية والطاعة والانقياد لله .. وأكبر نجاح للعبد هو أن يحصل على رحمة ربه ، غير أن هذه الرحمة ملك خاص بأولئك الذين تقوى علاقتهم بالله، فهم لا يدعون إلا إياه ، ولا يتذللون إلا أمامه تعالى .. وهم يرجون فضله وعطاءه ، كما يخافون سلبه وعقابه .. وهؤلاء هم الذين أرادوا التقرب من الله ، ولذلك فقد أعطاهم الله تعالى مكاناً قريباً منه.

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَـٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾

نَكِداً: عسيرا أو قليلا لا خير فيه.

نُصَرِّفُ الآيَاتِ: نكررها بأساليب مختلفة .

لقد أنشأ الله هذا الكون بحيث صارت وقائعه المادية بمثابة تمثيلاتٍ لجوانبه الروحية، فإذا ما نزل المطر في أية بقعةٍ من بقاع الأرض ، فلا يبقى جزء من أجزائها إلا

ويصل إليه الماء، غير أن هناك اختلافاً ظاهراً بين بقعةٍ وأخرى من حيث الاستفادة من المطر، فمن البقاع ما إذا وصل إليها الماء تحولت إلى حديقة بهيجةٍ غناء .. بينما تبقى بعض البقاع كما هي من غير استفادةٍ ولا عطاءٍ ، حيث لا ينبت هناك سوى الأشواك والحشائش الشيطانية .

وهذا هو شأن المطر الروحاني الذي نزل من عند الله في صورة الهداية ، ورسالة هذه الهداية تقرع آذان كل شخصٍ إلا أن الكل ينتفع بها على قدر استعداده الذاتي .. فالذي يملك استعداداً حياً لقبول الحق يستفيد منه استفادةً تامة ، وهو بذلك يحصل على حياةٍ جديدةٍ ، وتتيقظ فطرته النائمة فجأة ، ويتم اتصاله بمالكه الأعلى ، وتتفتح في نفسيته الجافة حديقة الكيفيات الربانية .

وعلى العكس من ذلك يكون حال الشخص الذي فقد سلامة فطرته ونقاءها ، فلا ينفعه مطر الهداية شيئاً ، رغم كل إمكاناته الصالحة ، فهو لا يزال بعد ذلك أيضاً "جافاً" كما كان من ذي قبل .. وإن نبت في داخله شيء ما فلا يكون ذلك إلا الأشواك والحشائش الشيطانية ؛ حيث تستيقظ في داخله ، عقب نزول مطر الهداية ، أشياء كالحسد ، والكبر ، والجدال بالباطل ، ومعارضة الحق ، دون الاعتراف بالحق ومناصرته . ولقبول مياه المطر لابد من أن تكون الأرض جافةً .. وأما إذا لم تكن الأرض جافةً فإن الماء سيمر من فوقها دون أن يترسب إلى أعماقها .

وهكذا فإن هداية الله لا تتأصل إلا في داخل شخصٍ يجدّ في طلبها، والذي يكون قد نقى روحه من الأفكار والأحاديث غير الإلهية . وعلى النقيض من ذلك فالشخص الذي يعيش غير مكترث بهداية الله ، والذي يكون قلبه مشغولاً بهوايات أخرى أو عالقاً بمظاهر عظمةٍ أخرى مما عدا الله - عز وجل - فإن هداية الله تصل إليه، ولكنها لا تتوغل في داخله، ولا تستحيل غذاءً لروحه ، ولا تروي أرض قطرته الجدباء حتى تنبت وتزدهر فيها حديقة الله !

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾

قَالَ المَلأُ: السادة والرؤساء .

وَأَنصَحُ لَكُمْ: أتحرى ما فيه صلاحكم قولا وفعلا.

قَوْماً عَمِينَ: عمي القلوب عن الحق والإيمان .

إلى نحو ألف سنةٍ من بعد أن توفي سيدنا آدم - عليه السلام - بقيت ذريته على التوحيد ، ثم بدأ الناس من بعد ذلك ، على حسب ما رُوي عن عبد الله بن عباس وغيره من علماء التفسير ، باتخاذ صور أسلافهم الصالحين ، حتى تظل ذكرى أحوالهم وعبادتهم حيةً متجددةً .. وكانت أسماء أولئك الصالحين : وداً ، وسواعاً، ويغوث ، ويعوق ، ونسراً .. وعلى مضي الزمان لم يلبث أولئك الصالحون أن احتلوا درجة الإله والمعبود بينهم.. وكان هؤلاء يقطنون بالعراق القديم .. فلما تفاقم الأمر واستشرى الفساد ، بعث الله إليهم رسوله نوحاً - عليه السلام - لإصلاح شأنهم .. غير أنهم رفضوا الإيمان بنوح - عليه السلام - ولم يستعدوا لاختيار مسلك التقوى .. وكان السبب وراء هذا الإنكار - طبقاً لما ورد في القرآن الكريم - يكمن في أنه صار من المتعذر عليهم أن يفهموا أن رجلاً ، لا يختلف شأنه عن أنفسهم في شيءٍ على ما يظهر ، قد اختير من عند الله لإبلاغ رسالته إلى البشر.

وقد كان سيدنا نوح يبدو لهم رجلاً ((عادياً)) جداً بالقياس إلى أولئك الأكابر الذين كانوا يزعمون أنهم على دينهم ، وقد كانت عظمة هؤلاء الأكابر القدماء من المسلّم بها نتيجة تاريخ القرون الماضية ، بينما كان سيدنا نوح عليه السلام شخصاً معاصراً ، ولم يكن قد اقترنت باسمه الأمجاد التاريخية .. فما لبث أن كذبه قومه ورفضوه ، ولم يتورعوا بالحمق والضلالة ؛ لكونه فى رأيهم قد خرج على دين الأكابر وانحرف عنه.. ولم يتمكن نصح سيدنا نوح وإخلاصه ، وقوة حجته ، وكونه على الحق والصواب، من التأثير على قومه ، وقد تم إغراق القوم بعد إتمام الحجة من قبل نوح عليه السلام وكان سبب هذا الإغراق هو أنهم كذبوا بآيات الله إذْ أرادوا أن تصلهم رسالة الله عن طريق أى ((شخصيةٍ مسلم بها)) بدلاً من ((شخصيةٍ عاديةٍ)) ، غير أن هذا كان عند الله تعالى ، دليلاً على عماهم . فقد زود الله الإنسان بالبصيرة لكيما يعرف الحق في صورة ((الآية)) ، وليس في صورة مظاهرةٍ حسيةٍ ، فالذين لا يعرفون الحق في صورة الآية فإنهم عند الله عميان رغم أنهم كانوا يتمتعون بالبصر.. وإنه ليس لأمثال هؤلاء نصيب ما في رحمة الله تبارك وتعالى .

﴿ ۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾

سَفَاهَةٍ: خفة عقل وضلالة عن الحق.

بَصْطَةً: قوة وعظم أجسام.

آلاءَ الله: نعمه وفضله الكثير .

كان إرم - وهو حفيد سيدنا نوح عليه السلام - من جملة أهل الإيمان الذين ركبوا معه في السفينة فنجوا من الغرق ، وقد بدأ من أولاده نسل عُرف بعادٍ ، وكان مهده بلاد اليمن القديم ، وكان هؤلاء في بداية الأمر على دين نوح عليه السلام ولما انتشر الفساد بينهم فيما بعد ، أرسل الله إليهم هوداً ، غير أن رؤساء القوم لم يروا فيه العظمة التي كان ينبغي - على حسب زعمهم - أن يتمتع بها رسول الله !! فظنوا أن هذا الشخص إما أن يكون أحمق ، وإما أن يكون مدعياً ادعاءً كاذباً ..﴿ وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ ﴾ هذه الجملة التي جرت على لسان النبي تدلنا على أن علاقة الداعي والمدعو ليست كعلاقة المنافس القومي أو الند السياسي ونظيريهما .. إنها علاقة لحمتها وسداها النصح والأمانة ، فينبغي أن يكون الداعي حريصاً على النصح للمدعو.. مهما أساء المدعو إليه ، وأن يظل ناصحاً له حتى الساعة الأخيرة .. وعليه ألا ينظر إلى الرسالة التي يبلغها على أنها حق من أشيائه الذاتية يُمنحه من الآخرين ، بل على أنها شيء الآخرين ، وأنها أمانة الله في عنقه لا يتبرأ من مسئوليته إزاءها إلا إذا أدّاها كما هي إلى الآخرين .

إن دعوة الأنبياء والرسل قامت دوماً على أساسٍ واحدٍ ، هو أن يذكروا البشر بنعم الله عليهم ، ويخوفوهم من أنهم لو لم يمارسوا حياتهم في هذه الدنيا شاكرين لله ، لتعرضوا لبطش الله وعقابه الأليم ، والأنبياء لا يتخذون من النزاعات القومية والقضايا المادية عنواناً أو بالأحرى شعاراً لدعوتهم ، وهم يبذلون قصارى جهدهم في سبيل عدم تحول أي شيءٍ آخر غير الدعوة الحقيقية ، إلى موضوع الجدل والنقاش بينهم وبين المدعو ، وأن يراهم القوم في مظهر الداعية إلى التوحيد والعمل للآخرة فقط.

ويتبين من قوله : ﴿ فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾ أن نعم الآخرة لن يستحقها إلا الذي كان قد اعترف بنعم الله في الدنيا ، والجنة هي أكبرمظهرٍ لكون الله منعماً ومحسناً، ولذا فلن يفوز بالجنة إلا من آمن بالله فى هذه الدنيا كمنعم ومحسنٍ .. وهذه المعرفة هي ثمن الجنة الحقيقى .

﴿ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ۖ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ ۖ أَتُجَٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ وَمَا كَانُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾ ﴾

رِجْسٌ: عذاب أو رين على القلوب.

وَغَضَبٌ: لعن وطرد أو سخط.

وَقَطَعْنَا دَابِرَ: أهلكنا آخر ... والمراد الجميع.

يتخذ الإنسان مفاهيمه عن حقائق الأشياء بواسطة أسمائها .. فإذا اقترن بإنسان وصف جميل بدا لهم ذلك الشخص جميلاً كما وُصف ، وكذلك العكس صحيح .. وبسبب هذه الأسماء ذاتها تصبح أشياء أو شخصيات أخرى غير الله تعالى مركزاً لتوجهات المرء ومحور اهتماماته ، فالناس ربما ينادون بعض الشخصيات بأسماء كالغوث الأقدس ، ومانح الكنوز والخيرات ، ومعطي الفقراء وذوي الحاجات ، وحالّ القضايا والمشكلات ، وأشباهها، وعلى مر الأيام ترتبط هذه الألفاظ بتلك الشخصيات لدرجة أن الناس لا يلبثون أن يقتنعوا بأن الذي يُدعى ((الغوث)) - أى المغيث - هو مغيث في واقع الأمر ، وأن المدعو بـ ((حالّ المشكلات)) هو في الحقيقة حالّ للمشكلات .. ولكن الحقيقة هي أن كل الأسماء من هذا القبيل لا تعدو أن تكون محض اختراعات البشر ، فلا يوجد هناك أي مسمى لهذه الأسماء ، وهى لا تستند إلى أي دليلٍ شرعى أو عقلي .

إن من أنواع شريعة الأسماء ما هو شائع بين الجهلاء من الناس ، بيد أن هناك صورة أرقى وألطف لها من ذلك، وهي تحظى بالقبول لدى المثقفين من الناس ، فها هنا أيضاً

يتم ربط بعض الألفاظ غير العادية ببعض الشخصيات ، مثل : قدسي الصفات وحبيب الله وصفيه ، وركن الإسلام ، ومنقذ الملة .. إلخ، وعلى مضي الزمن تستحيل مثل هذه الألفاظ جزءاً لا يتجزأ من أسماء تلك الشخصيات .. وبالتالي فلا يلبث الناس أن يعيدوا هذه الشخصيات غير عاديةٍ تماماً كما يظهر من خلال الأسماء المطلقة عليها .

إن الشيء الذي لا يزال يتوارث عن «الآباء» أو - بعبارة أخرى - الشيء الذي يكون قد اكتسب أهميةً تاريخيةً ، واقترنت به قدسية الماضي نتيجة التقاليد العريقة ، دائماً ما يصبح عند الناس عظيماً .. وبالمقارنة إلى ذلك يبدو حديث داعية «اليوم» عادياً وتافهاً ، ومن ثم فهم يرفضون الداعية المعاصر باعتباره غير ذي أهميةٍ ، لكونهم واثقين من أنهم إذا كانوا ورثة أمجاد السلف ومآثرهم ، فلا أحد يستطيع أن يمسهم بسوءٍ أو يصيبهم بخسارةٍ ما !

إن التمرد على الله يسفر عن صيرورة المرء - على توالي الأيام - قاسي القلب ، بليد الحس ، حيث إنه لا يعود أهلاً لقبول أية دعوةٍ إلى الإصلاح توجه إليه بأسلوب التذكير والموعظة ، وكأنما ينتظر أمثال هؤلاء قساة القلوب بليدي الحس أن يواجههم الله بأسلوب التعذيب والتنكيل !

﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾ ﴾

نَاقَةُ الله: خلقها الله من الصخر لا من أبوين .

آيَةً: معجزة دالة على صدقي .

وَبَوَّأَكُمْ: أسكنكم وأنزلكم.

فِي الأَرْضِ: أرض الحجر بين الحجاز والشام.

آلاءَ الله وَلاَ تَعْثَوْا: نعمه وإحساناته . ولا تفسدوا إفسادا شديدا .

بعد أن تم إبادة قوم عادٍ ، سار من نجا منهم من الأفراد الصالحين نحو شمال غربي جزيرة العرب ، واستوطنوا بمنطقة الحجر ، وتكاثر هناك نسلهم وأحرزوا تقدماً ورقياً هائلاً في ميدان الزراعة وفن العمارة، فقد شيدوا قصوراً شامخاتٍ في سهول الأرض ، وأحالوا الجبال الراسية عن طريق النحت بيوتاً حجريةً ضخمةً ، ثم انتشرت بينهم فيما بعد تلك المساوئ التي تتولد في الأمم إلى جانب بلوغها أوْج الرقي المادي والرفاهية الدنيوية ، والتي تتمثل في الانغماس في البذخ والترف ، وإهمال الآخرة ، وعدم الاكتراث بحدود الله ، وإظهار كبرياء الذات مع نسيان كبرياء الله وجلاله .

وحينئذٍ بعث الله فيهم صالحاً لكي يقوم بإنذارهم من بطش الله ، ولكنهم لم يلقوا إلى النصيحة الموجهة إليهم بالاً ، ولم يرضوا بتحويل ما بأنفسهم من فساد إلى الصلاح ، فقد أبوْا في رحاب هذا الكون، حيث كل الموجودات خاضعة لمشيئة الله ، إلا أن يعيشوا متمردين على الله ، وأصروا على أن يمارسوا حياتهم متجاوزين حدود أنفسهم المقررة لها، ولقد كان ذلك يعني نشر الفساد في عالم يسوده الصلاح ، ومن ثم حُكم عليهم بعدم الأهلية للسكنى في رحاب هذا العالم ؛ لاختبار قومه ثمود عيَّن الله ناقة وقال لهم : لا تمسوها بشيء من السوء وإلا فستتعرضون للهلاك .. ولقد كان بإمكان الله أن يعين لاختبارهم أسداً مهيباً جباراً ، غير أن الله تعالى عين الناقة بدلاً من الأسد ، وهنا مكمن السر، فإن المرء يتم امتحان خوفه من الله دوماً على مستوى ((الناقة)) وليس على مستوى ((الأسد)) .

في المجتمع البشري ، يتواجد دوماً أناس شأنهم شأن ((ناقة الله)) ، ألا وهم أولئك

الأفراد الضعفاء الذين لا يتمتعون بقوةٍ ماديةٍ ظاهرةٍ تمنع الآخرين من الإساءة إليهم، والذي لا يكون دافع السلوك الحسن معهم سوى الشعور الخلقي وليس أي نوعٍ من الخوف ، غير أن هؤلاء هم الذين يتم امتحان عبودية الناس لله على مستواهم ، فعن طريق هؤلاء يتلقى بعض الناس شهادة الجنة وبعضهم شهادة الجحيم .

لقد برعت ثمود في فن العمارة براعةً تامةً،ومما لا شك فيه أنهم كانوا قد تضلعوا من العلوم الضرورية ذات الصلة بالموضوع كالرياضيات والهندسة مثلاً،إذْ لولا ذلك لصارت هذه الإنجازات الباهرة مستحيلةً،غير أن الجريمة التي حُمِّلوا وزرها وعوقبوا بسببها،لم تكن إنجازاتهم المادية تلك، بل كانت جريمة إشاعة الفساد في الأرض،وهذا يعني أن الله لا ينهانا عن إحراز الرقي والتقدم في الحدود المشروعة،ولكن ينبغي على المرء أن يظل في معاملات الحياة ملتزماً بنظام الإصلاح،ذاك الذي نفذه الله تعالى في الكون بأكمله.

﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٧٩﴾ ﴾

وَعَتَوْا: استكبروا.

الرَّجْفَةُ: الزلزلة الشديدة ، أوالصيحة .

حين يُبعث النبي فإنه يكون في عصره شخصية يتنازع عليها الناس وليس شخصية يتفقون عليها ، ثم إنه لا تجتمع بوجوده مباهج الدنيا ، كما أنه لا يكون متربعاً على أي

مقعد من المقاعد الدنيوية ، وهذا هو السبب في أن الذين يعاصرون النبي لا يكادون يفهمون سِر كون النبي نبياً، وبالتالي يقابلونه بالإنكار والتكذيب ، حيث يتعذر عليهم التأكد من أن الشخص الذي نعرفه بوصفه مجرد رجلٍ عاديٍ، هو نفسه ذلك الشخص الذي وقع اختيار الله عليه لإبلاغ رسالته إلى البشر !!

وجواب أتباع سيدنا صالح المتمثل في قولهم: ﴿إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾﴾ يدل على ما كان هناك من فارقٍ بينهم وبين آخرين عداهم، فقد اتجهت أنظار المنكرين نحو شخصية صالح، بينما نظر المؤمنون إلى صميم رسالته، ولما لم ير المنكرون أية عظمةٍ ظاهريةٍ ملموسةٍ في شخصية صالح، أعرضوا عنه ورفضوه ، وعلى العكس من ذلك لاحظ المؤمنون في رسالة صالح دلائل الحق وإشعاعات الصدق، فما لبثوا أن بادروا إلى اتباعه ومناصرته .

والصدق دوماً يتجلى بقوة الدلائل وليس بقوة مظاهر العظمة الدنيوية .. فالذين يملكون الاستعداد لرؤية الحق في صورة الدلائل لا يلبثون أن يدركوه على الفور، وأما الذين أسرت عقولهم مظاهر العظمة السطحية فهم يبقَوْن حيارى مرتابين، ولا يحالفهم التوفيق للوقوف إلى جانب الحق أبداً .. وعلى أن عاقر ناقة سيدنا صالح لم يكن إلا رجلاً واحداً من طغاة قومه، إلا أن فعله نُسب هنا إلى القوم جميعاً في قوله تعالى : ﴿فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ﴾ ، ومن هذا يتضح أن أحد أفراد طائفةٍ ما، إذا قام بعملٍ قبيحٍ، ورضي الآخرون سواه بفعله ذاك، عُد الجميع شركاءه في تلك العملية الإجرامية، فإن الراضي بالجريمة كفاعلها ..

أن الأمة التي أطلقت العنان للشهوات، لا تروق لها أحاديث الواقعية، فهي لا تستعد للانضواء تحت راية شخصٍ يدعوها إلى عملٍ جادٍ، وعلى نقيضٍ من ذلك تلتف جموع غفيرة منها حول الذين يرفعون عقيرتهم بكلماتٍ براقةٍ، ويتاجرون بالآمال الزائفة الناصح الصادق والأمين لا يحظى لديها بالقبول، على حين أنها لا تلبث أن تندفع

زرافاتٍ ووحداناً وراء أولئك المغرضين الذين ينهضون من أجل استغلالها .

﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾

جَاثِمِينَ: هامدين موتى لا حراك لهم .

يَتَطَهَّرُونَ : يدعون الطهارة مما نأتي .

الغَابِرِينَ: الباقين في العذاب كأمثالها .

كان سيدنا لوط ابنَ أخي سيدنا إبراهيم الخليل - عليهما الصلاة والسلام - وقد أرسله الله إلى قومٍ كانوا يسكنون بساحل الأردن في سوريا الجنوبية ، وقد انساق بهؤلاء هذا القوم ما أتيح لهم من رغد العيش إلى السرف والترف، حتى إنهم ازدادوا توغلاً في الانحراف والضلال لدرجة أنهم اختاروا طريقة اللواط لتسكين غرائزهم الجنسية، فحذرهم النبي من هذه الفاحشة السافرة ، إن للكون خطةً مرسومةً من قبل الفطرة ، وقد أطلق القرآن على هذه الخطة الفطرية وصف ((الإصلاح)) ، والفساد هو أن تسير في الاتجاه المضاد لخطة الإصلاح هذه .. وكل موجودات الكون سائرة في نفس هذا الاتجاه الإصلاحي، وإنما هذا الإنسان هو الذي يُسيء استخدام حريته، فيتخذ لنفسه طريقاً معاكساً لطريق الفطرة .

وقد كان قوم لوط مصابين بفسادٍ من هذا النوع ذاته .. إن الأسلوب الفطري لإقامة العلاقة الجنسية هو أن يعاشر الرجل المرأة كزوجين شرعيين أحدهما للآخر، وهذا هو السير في طريق الإصلاح ، وعلى العكس من ذلك، فلو أن العلاقات الجنسية بدأت

تقام بين الرجل والرجل أو بين المرأة والمرأة، فإنه تجاوز عن حدود الله المقررة وهذا ما أُطلق عليه في القرآن وصف الفساد .

لم يؤمن بسيدنا لوط عليه السلام إلا نفر قليل من أقربائه ، بينما ظل الباقون من قومه بأسرهم غارقين في عبوديتهم للشهوات والملذات ، وقالوا : إذا كان هؤلاء يعدوننا جميعاً قذرين، ويودون تطهير أنفسهم عما نحن فيه من قذارةٍ، فما الذي يحوج الأطهار أمثالهم إلى المكث بين ظهراني القذرين أمثالنا؛ ليخرجوا من بلدتنا هذه ؟!

إن قولهم هذا كان نابعاً في الحقيقة من الكبر والغطرسة ، وإنما اجترؤوا على هذا القول اغتراراً بكثرتهم العددية وتفوقهم المادي ، والمصابون بمركب الكبر والغطرسة دائماً ما يقولون لجيرانهم الضعفاء : إن من لا تُعجبهم طريقتنا، فليغادروا إذن أرضنا . غير أن هذا شرك، والشرك هو أكبر جريمةٍ تُمارس في أرض الله .. لقد كانت امرأة لوط أيضاً من الذين تعرضوا لعذاب الله الذي حل بقومه ، ومن هذا يتضح مدى نزاهة عدل الله وعدم محاباته في باب المكافأة ، ففي ميزان عدل الله لا اعتبار البتةً بالقرابات والصداقات .. إن قضاء الله نزيه غير محابٍ لدرجة أنه تعالى لم يعف حتى عن ولد نوحٍ، ووالد إبراهيم، وزوجة لوط، وعم النبي محمدٍ – عليهم صلوات الله وسلامه – ومن جانبٍ آخر أدخل امرأة فرعون الجنة إذْ آمنت برسوله وعملت عملاً صالحاً !

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ وَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ

وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُواْ فَٱصْبِرُواْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٧﴾

وَلاَ تَبْخَسُوا: لا تنقصوا .

صِرَاطٍ: طريق.

وَتَبْغُونَهَا عِوَجاً: تطلبونها معوجة أو ذات اعوجاج .

كان "مِدْيان" واحداً من أولاد سيدنا إبراهيم عليه السلام الذين وُلدوا له من زوجته الثالثة قطورة .. وإليه ينتهي نسب أصحاب مَدْين، وقد كانت مساكنهم بشمال غربي الجزيرة العربية على ساحل البحر الأحمر، وكان هؤلاء مؤمنين بالله؛ يعدون أنفسهم حملة الدين الإبراهيمي، ولكن لم تكد تمضي خمسة قرونٍ على وفاة سيدنا إبراهيم - عليه السلام - حتى انتشر الفساد بينهم، وقد كان هؤلاء قوماً يشتغلون بمهنة التجارة، فكان فسادهم من هذه الناحية أظهر ما يكون، حيث إنهم لم يعودوا متمسكين بمبادئ العدل والأمانة في الكيل والوزن وتبادل الأخذ والعطاء .

ونبذ الإنصاف والعدل خلال التعامل مع الغير مخالفة لنظام الإصلاح الكوني الذي نفذه الله تعالى .. فقد أسس الله نظام عالمه على كامل العدل والإنصاف، فلا يوجد مخلوق ما إذا أخذ من الآخر استوفى واستزاد، وإذا أعطاه نقص ولم يوف حقه، فكل شيءٍ قائم على مبدأ العدل إلى حد الصحة الرياضية، فينبغي للإنسان ألاَّ يفعل إلا ما يفعله كل الكائنات المحيطة به، فإن الشذوذ عن ذلك هو الفساد في عالم الله الذي كله عدل وصلاح .

حين تفاقم أمر أهل مدين، وبلغ فسادهم العملي منتهاه، بعث الله إليهم شعيباً برسالته فنصح لهم عليه السلام قائلاً : اتبعوا طريق الصدق والأمانة والاستقامة في المعاملات، وقد أبلغهم رسالته بواسطة دلائل واضحةٍ خير بلاغٍ، ولكنهم لم يكادوا يستعدون لقبول النصيحة ، حتى انتهى بهم الأمر إلى أن تصدَوْا للقضاء على دعوة شعيب ذاتها ،

فبدءوا يفتعلون ألواناً من العيوب والنقائص في أحاديثه عليه السلام ليسوء ظن الناس به وتتشوه سمعته عندهم ، كما كانوا يتخذون إجراءاتٍ عدوانيةٍ عنيفةٍ لإرهاب الناس حتى لا يؤمنوا به ويقفوا إلى جانبه ، وفي نهاية المطاف حل بهم عذاب إلهي أبادهم شر إبادةٍ .

إن رعاية حقوق العباد، واستقامة الأمور والمعاملات بين الناس لها أهمية بالغة عند الله لدرجة أن أمةً - رغم ادعاءها الإيمان - تم إهلاكها بسبب مخالفتها لذلك . إن الله خير الحاكمين، والحكم أو القضاء الخيّر لا يتحقق بالمحاباة والمجاملة، فمن المستحيل أن يؤاخذ الله غير الناطقين بكلمة الإيمان على ظلمهم وجورهم، ويعفو عن الناطقين بكلمة الإيمان على ممارسة ظلمٍ وجورٍ مماثلٍ تماماً .!

﴿ ۞ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۖ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۗ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩١﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا ۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَانُوا۟ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٢﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٩٣﴾ ﴾

رَبَّنَا افْتَحْ: احكم واقض وافصل .

الرَّجْفَةُ : الزلزلة الشديدة أو الصيحة.

لَّمْ يغنوا فيها : لم يقيموا ناعمين في دارهم.

آسَى: أحزن .

جريمة قوم شعيب عليه السلام لم تكن جريمة إنكار الله بل جريمة الافتراء على الله كذباً ، يعني أنهم كانوا قد نسبوا إلى الله ديناً لم يكن الله قد أنزله عليهم ، وعلى هذا المنوال نفسه نسجت أمم الأنبياء السابقين جميعاً، فقد تلقت كل الأمم دين الله الحق والخالص من كل شوبٍ، ولكنها لم تلبث أن أضافت إليه تغييراتٍ مزعومةً فأحالته غير الذى كان أول الأمر ، حيث جعلوا من دين الله دين أهوائهم وشهواتهم وأخذوا يسمونه دين الله.

وقد خُيل إلى الذين كانوا حائزين على مقام العزة والكبرياء والسؤدد في ظل الدين التقليدي القائم آنذاك، أنهم لا يملكون دليلاً يدحضون به أحاديث النبي، إلا أن وسائل السلطة والقوة كلها في قبضتهم، فحاولوا كبت صوت النبى بواسطة القوة حين وجدوا أنفسهم عاجزين في ميدان الدليل ، فلفتوا انتباه أتباع النبى إلى الوضع الخطير المتمثل في صيرورة كل مصادر الحياة تحت ظل نظام العصر القائم حكراً على الذين يعدونهم مبطلين، ولو أن المبطلين هؤلاء نشطوا ضدهم فإنهم سيجدون وسائل معيشتهم ؟! ولكن غاب عن بالهم أن الله هو أقوى وأقدر منهم، والذى صار الله ضده فلا ملجأ ولا منجى له في أي مكانٍ .. إنما تُتاح المهلة لأحد الناس مالم يتضح له أمر الحق، وأما إذا صار الحق واضحاً كل الوضوح وظل المرء يعاند ويتفرعن، فإنه يفقد بعدئذٍ استحقاقه للعطف والرحمة، وعلى هذا الأساس ذاته يُعاقب المجرم فى الدنيا، كما أن الناس سينالون العقوبة فى الآخرة بحسب جريمتهم على هذا الأساس نفسه كذلك .

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَواْ وَّقَالُواْ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَـٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ

لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾

بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ: الفقر والبؤس والسقم والألم .

يَضَّرَّعُونَ: يتذللون ويخضعون ويتوبون .

عَفَوْا: كثروا ونموا عددا ومالا .

بَغْتَةً: فجأة .

لَفَتَحْنَا: ليسرنا عليهم أو تابعنا عليهم .

يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا: ينزل بهم عذابنا .

بَيَاتاً: وقت بيات أي ليلا.

مَكْرَ الله: عقوبته أو استدراجه إياهم .

لقد جاء في الحديث : « لا يزال البلاء بالمؤمن حتى يخرج نقياً من ذنوبه، والمنافق مثله كمثل الحمار لا يدري فيم ربطه أهله ولا فيم أرسلوه » ؟! أو كما قال عليه الصلاة والسلام[1]. إن الله يبتلي الإنسان بضروبٍ من الآلام والمصائب، حتى يلين قلبه، ويتحطم اعتماده على أشياء أخرى غير الله تعالى، ويذهب كبره وإعجابه بنفسه الذي طالما يحول بين المرء وبين قبوله لصدقٍ يأتيه من الخارج ، وهكذا تحت تدبيرٍ إلهي يتم توليد الشعور بالنقص والضعف داخل المرء لكيما يصيخ إلى صوت الحق .

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير، المجلد الثاني، ص ٣٨ .

obeikandl.com

ويمر بهذا الابتلاء الإلهي عامة البشر كما تمر به الطائفة المعاصرة للنبي، ولكن بمقتضى السنة الإلهية يتم هذا الابتلاء في ستارٍ من اللبس والاشتباه، وعلى سبيل المثال : إذا حلت بلية ما فإنها تحدث عبر سلسلةٍ من الأسباب والعلل، ويصير هذا الوضع مثار الفتنة بالنسبة لكثيرٍ من الناس، حيث إنهم يغضون أبصارهم عنها قائلين : إنها كانت أمراً واقعاً فوقع !! وحين لا تجدي فيهم المصائب والمحق يقلب الله عليهم الحال فيبتليهم بالنعمة والرخاء.. إلا أنهم لا يزدادون إلا توغلاً في المغالطةٍ وسوء الفهم لمشيئة الله، إذْ لا يلبثون أن يقتنعوا بأنها لم تكن سوى حادثةٍ من حوادث الدهر، قائلين : إنما هي تقلبات الأيام المعتادة ذاتها التي لا تزال تطرأ على البشر بين الفينة والأخرى، وإلا فما هو السبب إذن في أننا أصبحنا نتقلب الآن في أعطاف العيش الناعم بعد أن كنا نتقلب على رمضاء البؤس والشدة؟!

فهم يخرجون من كلا نوعَيْ التنبيه الإلهي محرومين دون أن يتلقوا أي درسٍ ولا عبرةٍ بهذا أو ذاك . وإذا أتيح لأحد الناس فرصة الرقي والتقدم بعد البغي والطغيان فإنها علامة على أن الله قرر أن يفاجئه بالبطش به من حيث لا يشعر بأنه سيتعرض لمؤاخذة الله وبطشه !!

على أن حياة الإيمان والتقوى تعود منافعها على صاحبها أصلاً في الآخرة، ولكن لو شاء الله لمنح المؤمنين المتقين أسباب العزة والكرامة والرفاهية في هذه الدنيا أيضاً كجائزةٍ أوليةٍ على أعمالهم .

﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ ۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠١﴾ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ ۖ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ ﴿١٠٢﴾ ﴾

أَوَ لَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ: ألم يبين الله للذين آمنوا.

أَن لَّوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُم: إصابتنا إياهم لو شئنا .

وَنَطْبَعُ: نختم .

مِّنْ عَهْدٍ: من وفاء ما أوصيناهم به .

يحدث على وجه الأرض مرةً تلو أخرى أن أمةً من الأمم تنال من العزة والرخاء أوفر منالٍ، ثم إنها لا تلبث أن يطرأ عليها الانحطاط والزوال، ويتم دفعها عن الساحة، وبدلاً منها تحتل أمة أخرى كل أماكن العزة والرخاء والرفاهية .

وإن هذه الواقعة آيةٌ مِن آيات الله، إنها لتذكّر المرء بالله؛ فهي تدل على أن مصادر العطاء والحرمان كلها بيد وجودٍ أعلى وأسمى؛ فهو يعطي لمن يشاء وينتزع ممن يشاء، ومن السهولة بمكان أن يفهم الإنسان هذه الحقيقة فيما إذا قام باستخدام قوة السمع والبصر التي منحه الله إياهما، وبإمكانه أن يعلم أن المنبع الحقيقي لو لم يكن في حوزة وجودٍ آخر، لما سمحت طائفة أتيح لها الغلب والانتصار مرةً لطائفةٍ أخرى بأن تتغلب عليها أبداً ، ولو أن المرء تلقى درساً كهذا، لوجد في واقعة صعود الأمم وانحطاطها غذاءً ربانياً، ولكن كلما تأخرت أمة ما، وصعدت أمة أخرى مكانها، فلا يلبث أفرادها أن يقعوا في سوء فهمٍ قائل بأن ما قد جرى على الأمة السابقة، كان خاصةً لها وحدها، وأنه لن يجري علينا مثل ذلك أبداً!!

وإنما زود الله الإنسان بقوى البصر والسمع والعقل لكي يتلقى منها الدرس والعبرة، ويتفهم بواسطتها إشارات الله، ولكن عندما لا يستخدم المرء هذه القوى والمواهب فيما ينبغي عليه أن يستخدمها فيه، فإن ما يحدث بعد ذلك بالضرورة، وبموجب القانون الإلهي هو أن تبدأ حساسية قلبه تخمد وتموت تدريجياً، إلى أن تُصاب مشاعره وعواطفه بالنسبة لهذه الأمور بالجمود والبلادة، ويُطبع على قلبه ودماغه بطابع التحجّر والقسوة ويؤول أمره إلى حيث أنه يبصر ولا يرى، ويستمع ولا يكاد يسمع،

ورغم تمتعه بالعقل لا يكاد يعي ويفهم ما يُعرض عليه من حقائق، ومع كونه إنساناً يصبح لا إنساناً!!

لقد بدأت مسيرة الإنسانية من المؤمنين بسيدنا آدم عليه السلام ثم لما انتشر الفساد بعدئذٍ أرسل الله رسله لتذكير البشر بالعهد الإلهي، وما حدث الآن هو أنه تم الإبقاء على أولئك الذين تقبّلوا الإصلاح عن طريق الأنبياء، وأُهلك مَن عداهم مِن الذين كانوا قد رفضوا القبول بالإصلاح، بيد أن الأجيال التالية لم تلبث أن نسيت ثانيةً عهد الإسلام، فلقيت بالتالي المصير نفسه الذي كان قد لقيه المؤمنون بآدم أول مرةٍ، وظلت تتكرر هذه الظاهرة مرةً بعد مرةٍ على مسرح العالم، حتى صار التاريخ، بالنسبة لأغلبية الجيل البشري، تاريخاً حافلاً بالعصيان والفسوق ونقض العهد!

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ ۖ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾ ﴾

فَظَلَمُوا بِهَا: فكفروا بالآيات.

حَقِيقٌ عَلَى: حريص على أن أو خليق بأن.

مُّبِينٌ: ظاهر أمره لا يشك فيه أحد.

وَنَزَعَ يَدَهُ: أخرجها من طوق قميصه .

بَيْضَاءُ: غلب شعاعها شعاع الشمس .

المَلأُ: أهل المشورة والرؤساء .

أَرْجِهْ وَأَخَاهُ: أخر أمر عقوبتهما ولا تعجل

حَاشِرِينَ: جامعين السحرة وهم الشرط.

يتوجه النبي بخطابه – أولاً – إلى رؤساء عصره، الذين يمتلكون زمام القيادة الفكرية في المجتمع ، وهؤلاء بسبب ما يتمتعون به من استعدادٍ عقليٍ ممتازٍ أقرب ما يكونون إلى أن يفهموا رسالة الحق بعمقٍ، غير أن التاريخ يشهد أن هؤلاء قد اتخذوا دوماً موقف ((الظلم)) من الدعوة النبوية؛ أي أنهم استخدموا ذكاءهم لكي يفتعلوا مفاهيم معوجةً عن رسالة الحق.. كأن يقال مثلاً عن آيةٍ تقوم دليلاً على ظهورها بقوة الله: إنها ظهرت بقوة السحر. أو إسباغ الصبغة السياسية على الدعوة تشويهاً لسمعة رجالها، فيقال : إنهم لم ينهضوا إلا من أجل إقامة دولتهم السياسية .

وبما أن العوام لا يتمكنون من تحليل الأمور، لذا فلا تلبث مثل هذه الأقاويل أن تُلبس عليهم أمر الحق ، بيد أن إثارة الأقاويل من هذه النوع ضد الداعي إلى الحق جريمة عظيمة جداً، فمن خلال ذلك ربما يتمكن زعماء العصر من صيانة قيادتهم، إلا أن هذه الصيانة لا تتسنى لهم إلا بمقابل أن تصير آخرتهم غير مصونة إلى أبد الآبدين !

إن الله تعالى هو الحق ؛ ولذا فلا يجوز لشخصٍ يقوم مُبَلِّغاً عن الله أن ينطق بشيءٍ آخر سوى كلمة الحق والعدل، ولو أنه نطق بكلمة أخرى غير الحق لفقد أهليته لتمثيل الله والتبليغ عنه، وسيكون بالتالي مستحقاً لعقاب الله بدلاً من إنعامه ، لقد كان سيدنا موسى عليه السلام مبعوثاً إلى بني إسرائيل وإلى فرعون وقومه في آن واحدٍ، ومع أن بني إسرائيل كانوا قد أصيبوا آنذاك بنقائص وأمراضٍ كثيرةٍ، إلا أنهم قاموا بالجملة بتأييد

سيدنا موسى ومناصرته . وعلى نقيضٍ من ذلك أنكره فرعون وقومه ما عدا أفراداً عديدين منهم، وفى نهاية المطاف، بعد نشاطٍ تبليغيٍ دام أربعين سنةً، قرر أن يهاجر مع بني إسرائيل من أرض مصر، فطالب فرعون بأن يسمح لبنى إسرائيل بالخروج من مملكته حتى يعبدوا الرب الواحد في رحاب البرية .. (سفر الخروج : ١٦) على أن سيدنا موسى عليه السلام كان ممثلاً للحق، إلا أن فرعون اعتبره عملاً من أعمال السحر، فقرر بدوره أن يقاومه عن طريق السحرة!

﴿ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُواْ ۖ فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾ ۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُواْ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾

سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ: خيلوا لها ما يخالف الحقيقة.

وَاسْتَرْهَبُوهُمْ: خوفوهم تخويفا شديدا .

تَلْقَفُ: تبتلع أو تتناول بسرعة.

مَا يَأْفِكُونَ: ما يكذبونه .

فَوَقَعَ الحَقُّ: ظهر وتبين أمر موسى عليه السلام .

يتم تأييد الأنبياء بالمعجزات على غرار الشيء الذي يشيع في مجتمعاتهم وقد كانت مصر القديمة يسودها السحر، ومن ثم فقد تم تأييد سيدنا موسى عليه السلام بمعجزةٍ مماثلةٍ

لذلك .

اجتمع كبار السحرة المصريين، بمناسبة عيدهم القومي - يوم الزينة - وفقاً للبرنامج المحدد من قبل فرعون ، وقال السحرة : إما أن نظهر أولاً شعوذتنا، وإما أن تقوم بعرض ما تريد عرضه علينا.. فأجاب موسى : أن تقوموا أنتم أولاً بإظهار ما لديكم من فنون السحر والشعوذة .. وهكذا كان ، مما يدل على أن النبي لا يبادر عدوّه بتوجيه الضربة إليه، وإنما هو يتيح فرصة المبادرة لعدوّه حتى الساعة الأخيرة ، وحين يكون الطرف المعارض قد أخذ بذلك مسئولية المبادرة على عاتقه هو، فلا يلبث النبي حينئذٍ أن يصرعه ويتغلب عليه باستخدام كل طاقاته ، ففي مجال الدعوة النظرية يقف النبي موقف المبادرة، بينما في ميدان الصدام الفعلي يقف موقف الدفاع .

استمرت دعوة سيدنا موسى عليه السلام فى مصر حوالي أربعين عاماً، والمواجهة الفعلية التي جرت بينه وبين السحرة، هي مما وقع في أواخر أيامه بمصر، وبالإمكان القول - استناداً إلى ذلك - أن السحرة كانوا على سابق إلمام بدعوة سيدنا موسى عليه السلام إلا أن غشاوة أعينهم لم تكن قد زالت بعد ، وحين رأوا تَفَوُّق سيدنا موسى وامتيازه في ميدان اختصاصهم، ارتفعت الحجب كلها وتبينوا أنها ليست بقضية السحر، بل هي قضية النبوة والتأييد الإلهي، ومن ثم خرُّوا ساجدين بين يدي الله عز وجل .

وحين رمى السحرة بحبالهم وعصيّهم بدت للناس كأنها حيات تسعى وتتلوى بسبب التخييل والإيهام ، ولكن حين تحولت عصا موسى إلى حيةٍ وبدأت تزحف في الساحة، عاد كل ما ألقاه السحرة من حبالٍ وعصيٍ كما كان.

لقد كان السحرة عارفين بحدود السحر، ومن خلال هذه الواقعة أدرك السحرة أن التدابير الإنسانية، مهما بلغت منتهى الكمال والدقة، غاية في الضعف والتفاهة، وأن الله عظيم وقوي بلا حدودٍ ولا نهايةٍ ، وبعدئذٍ جعل فرعون يبدو لهم، على سلطانه وجبروته، حقيراً ضئيلاً، فالسحرة الذين كانوا قبل رؤية عظمة الله حريصين على جائزة

فرعون وتكريمه، إذا بهم الآن لا يلقون بالاً إلى تهديد فرعون وتوعده إياهم بأشد العقوبات وأقساها كما لو أنه شيء لا حقيقة له !

﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾ ﴾

وَمَا تَنقِمُ مِنَّا: ما تكره وما تعيب منا.

أَفْرِغْ عَلَيْنَا: أفض أو صب علينا .

التضحية بالنفس من أجل الحق هي الشهادة النهائية على كون الحق حقاً، وبنصرةٍ من الله تعالى وُفق السحرة لهذه الشهادة ذاتها، حيث إنهم بتقديم أنفسهم لأشد أنواع العقوبة قد أقاموا الدليل على أن إيمانهم بموسى عليه السلام ليس بحيلةٍ أو مؤامرةٍ ما، إنما هي اعتراف بالحق بأصدق معاني الكلمة وأعمقها، بيد أن وأعظم أعمال السحرة كان بمثابة أكبر ضربةٍ موجهةٍ إلى عنجهية فرعون وكبريائه .. إذْ إنهم بوقوفهم إلى جانب موسى مع التخلي عن فرعون كانوا قد أهانوه أمام قومه أجمع، فما لبث فرعون أن امتلأ غضباً وحنقاً عليهم، فعقد العزم على اتخاذ نفس الإجراءات الظالمة ضد السحرة التي يتخذها كل متكبرٍ جبارٍ أتيح له أي نوعٍ من السلطة والاقتدار على وجه الأرض، لقد انهزم السحرة وفرعون كلاهما معاً في مضمار الدليل ، غير أن السحرة صاروا مستحقين لنعم الله الأبدية لاعترافهم بهزيمتهم، بينما اتخذ فرعون من هزيمته قضيةً تمس كرامته وعزة نفسه، فما وقع في نصيبه شيء سوى أن يتصدى لاضطهاد اتباع الحق في الدنيا لتسكين كبريائه وأنانيته الكاذبة، ويُلقى به في الآخرة في عذاب الله الأبدي ، نظر فرعون إلى موضوع قبول دعوة موسى أوْ رفضها على أنه رهن بـ ((إذنه))، بينما نظر إليه

السحرة على أنه ((آية)).. وذلك ديدان المتكبرين دائماً، إذْ إنهم يعتبرون مشيئتهم الذاتية هي الأهم دون الدليل والبرهان، ولا يُكتب لأمثال هؤلاء التوفيق لقبول الحق أبداً .

إن نصرة الله هي التي كانت وراء ذلك الصمود والاستقامة التامة التي أظهرها السحرة في هذه المرحلة البالغة الخطورة، والدعاء الذي جرى على ألسنتهم كان هو الآخر دعاءً مُلهماً من عند الله ، إن عبداً ما حين يسلم وجوده كله لله، فهو يصبح إذْ ذاك قريباً من الله لدرجة أنه يبدأ يصله فيض من الله خاص، وحينئذٍ يفيض لسانه بكلمات يُلقيها الله في روعه، فهو لا يدعو في ذلك الحين إلا دعاءً يكون ربه قد قرر مسبقاً أنه مقبول مستجاب .. وقول السحرة : ﴿ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَتَوَفَّنَا مُسۡلِمِينَ ١٢٦ ﴾ هو بمثابة القول، بمعنىً آخر: إننا قد فوضنا أنفسنا وأمورنا كلها إليك قدر استطاعتنا، فلتكفلنا أنت الآن فيما هو خارج عن نطاق استطاعتنا.. وإذا ما دعا أي عبدٍ هذا الدعاء في سبيل الدين، صار الله كافيه، ولا ريب ، في كل الصعوبات والمشاكل التي يواجهها فى طريقه.

﴿ وَقَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِ فِرۡعَوۡنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوۡمَهُۥ لِيُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَنَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡ وَإِنَّا فَوۡقَهُمۡ قَٰهِرُونَ ١٢٧ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصۡبِرُوٓاْۖ إِنَّ ٱلۡأَرۡضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ ١٢٨ قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبۡلِ أَن تَأۡتِيَنَا وَمِنۢ بَعۡدِ مَا جِئۡتَنَاۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُهۡلِكَ عَدُوَّكُمۡ وَيَسۡتَخۡلِفَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ ١٢٩ ﴾

وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ: نستبقي بناتهم ـ للخدمة .

المشكلة التي قدمها بنو إسرائيل إلى نبيهم كانت ناتجةً عن الحكومة ، غير أن الحل المطروح لها من قبل النبي كان يكمن في الإهابة بهم إلى العودة إلى الله، مما يوضح لنا ما

الفرق بين نظرة النبي ونظرة القادة الدنيويين إلى المشاكل القومية ، فالقادة الدنيويون يبحثون عن الحل لهذا النوع من المشاكل على مستوى الحكومة؛ سواء كان ذلك متمثلاً في المصالحة والتفاهم مع الحكومة أو الاصطدام بها .. بينما الحل الذي طرحه النبي هو الصبر على كل ما يجري الآن على الساحة السياسية والاستنصار بالله، والعودة اليه.

ثم إن النبي أشار أيضاً إلى ما يبعثه على تقديم هذا الحل الذي لا يتفق والنزعة القومية العامة، فالسبب في ذلك هو أن هذه المشاكل، وإن كانت فيما يبدو طارئةً من قبل السلطة، وعن طريق السلطة ذاتها يمكن الوصول إلى حلها كذلك ، ولكن السؤال هو : كيف تحصل هذه السلطة لأحدٍ ؟! إنها لا تتسنّ لأحدٍ تدابيره الذاتية وحدها، بل تتوقف على قضاء الله تعالى سلباً وإيجاباً، فهو الذي يعطي الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء، وإذا كانت السلطة رهن مشيئة الله فلابد وأن توجد جذور الحل للمشاكل الناتجة عنها عند الله تعالى كذلك .

ثم إن هذه السلطة إذْ تُتاح لأحدٍ، كائناً من كان، فإنما هي تكون بالنسبة له مادة امتحانٍ وابتلاءٍ ، فالضعف في هذه الدنيا ابتلاء، وامتلاك القوة ابتلاء كذلك، فالذي تتوافر لديه اليوم السلطة، إنما أتيحت له لكيما يتم اختبار ما إذا كان يتجه نحو الظلم والاستكبار والتفرعن، أو يسلك مسلك العدل والتواضع ، وإذا قضى الله من بعد ذلك بتخويل السلطة إياكم، فلا يكون الغرض منها في ذلك الوقت أيضاً سوى أن يتم اختباركم، وكما أن السلطة تُنتزع من يد طائفةٍ ما، لعدم أهليتها لها، ويتم تخويلها أية طائفةٍ أخرى سواها، فكذلك ستُنتزع تارةً أخرى من هذه الطائفة الثانية، فيما لو قام الدليل على عدم جدارتها بها، وسيتم إعطاؤها بالتالي لأية طائفةٍ ثالثةٍ .. وهكذا دواليك .

إن الرفاهية والسلطة التي يتطلع إليها المرء في هذه الدنيا، هي في الحقيقة مما يتاح في الآخرة، لأن هذه الأشياء إنما تتاح في هذه الدنيا على وجه الابتلاء والاختبار ، بينما

ستتاح لعباد الله الصالحين في الآخرة على وجه الإنعام والتكريم .

﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾ وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ ﴾

بِالسِّنِينَ: بالجدوب والقحوط.

يَطَّيَّرُوا: يتشاءموا .

طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ: شؤمهم عقابهم الموعود في الآخرة .

إننا إذْ نصف أمراً ما بأنه خطأ، وأمراً آخر بأنه صواب، فإنما نعبر عن هذا بواسطة الألفاظ سلباً وإيجاباً، بيد أن الذي يستخدم الألفاظ هو هذا الإنسان؛ الذي يتمتع هنا في عالم الامتحان الراهن باختيار أن يتصرف في الألفاظ على هواه، ويستخدمها كما يشاء .

وأخطر أنواع الحرية التي أتيحت للإنسان في عالم الامتحان، هو أنه يتمكن هنا من أن يجد ألفاظاً تجعل من الحق باطلاً وبالعكس ، فهو يستطيع أن يرفض معجزةً نبويةً صارخةً، قائلاً : ما هي إلا سحر مبين ، كما يستطيع أن يصف نعمةً أعطاه الله إياها، بألفاظٍ كما لو أنه حصل عليها بفضل مؤهلاته وجهوده الذاتية ، وبسبب إعراضه عن الحق لو أن الله أنزل عليه عقوبةً رادعةً ما، فإنه حر في أن يقول إنها نتيجة شؤم أولئك العباد الربانيين أنفسهم الذين تسببت إساءته إليهم في استنزال هذه العقوبة عليه !!

إن كل أمرٍ يأتي من عند الله، فإنما يأتي لكيما يتعظ المرء به، لكن المرء لا يلبث أن يوجه كل موعظةٍ عكسيةً بواسطة الألفاظ، وبالتالي يبقى محروماً من الظفر بما تنطوي عليه من درسٍ وعبرةٍ .

﴿ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ ﴾ تدل هذه الجملة التي قالها فرعون وقومه على أن الحق، بالرغم من كونه ظاهراً بيّناً في أكمل صورة، لا يفوز به إلا الذي يريد أن يفوز به ويبحث عنه ، الذي يكون جاداً في شأن الحق، والذي يكون من صميم قلبه مستعداً لتلقي الحق أينما وُجد وفي أية صورةٍ ظهر، وعلى نقيضٍ من ذلك، فإن الشخص الذي ليس بجادٍ في هذا الشأن، والذي قد انتهى به الأمر إلى أنه قنع واطمئن بما عنده وكفى، فإنه سيظل عاجزاً عن رؤية الحق في صورة الحق، وللسبب ذاته لن يتمكن من قبوله واختياره .. إن الاطمئنان بالوضع الحاضر من شأنه أن يجعل المرء غير خبيرٍ بالأشياء التي تقع خارج ذاته هو، فهو يعلم ولا يعرف، ويسمع ولا يعي .. إن المرء لابد أن يظفر بالحقيقة فيما لو فكر وتأمل في الموضوع بعقليةٍ غير منفعلةٍ، وبدون خلفياتٍ مسبقةٍ، ولكن أكثر الناس تتأثر أفكارهم وآراؤهم بنفسياتهم الخاصة، وهذا هو السبب في أنهم يبقون حيارى فاشلين في الظفر بالحقيقة .

﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ۖ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ ﴾

الطُّوفَانَ: الماء الكثير أو الموت الجارف .

وَالْقُمَّلَ: الدبي أو القراد أو القمل المعروف .

الرِّجْزُ: العذاب بما ذكر من الآيات.

يَنكُثُونَ: ينقضون عهدهم الذي أبرموه .

كان بنو إسرائيل - أولاد سيدنا يعقوب عليه السلام- في قبضة فرعون يعانون من ضروب القهر والاضطهاد والاستعباد، وكان الأقباط - أهل مصر الأصليين - بدورهم

يستخدمونهم كعبيدٍ وأُجَرَاء في أعمال الزراعة والبناء ؛ ولذلك فلم يكن يريد الحكام الفراعنة أن يغادر بنو إسرائيل أرض مصر .. وفي بداية أمره حين طالب سيدنا موسى فرعون بأن أرسلْ معي بني إسرائيل، فاتهمه فرعون وحاشيته، بإسباغ مفهومٍ سياسيٍ على مطالبته تلك، بأنه يريد أن يخرج القبط من أرض مصر .. وقد كان هذا كلاماً فارغاً عن أي معنىً أوْ مدلولٍ ، لأن سيدنا موسى كان يرمي إلى إخراج نفسه وقومه من مصر، بينما رماه فرعون بأنه يحاول أن يخرج القبط من بلادهم الأصلية ، لقد كان فرعون وأصحابه إذ ذاك في غرور السلطة وسكرتها، مما جعل كلاماً سديداً يبدو لهم ذا عوجٍ والتواء وغموضٍ .

ولكن في المرحلة التالية أخذ الله فرعون وقومه بألوانٍ شتى من البلايا والنكبات، فأصابهم بالقحط والجدب لعدة أعوامٍ متواصلةٍ ، وانهمرت السماء عليهم بمطرٍ شديدٍ مصحوبٍ بالبرَد والرعد والبرق، وغزت جنود مجندة من الجراد فأكلت الزروع والثمار، وأتت على كل أنواع الخضراوات والبقول، وكثر القمل والضفادع لدرجة أن الثياب والفرش امتلأت قملاً، واكتظت البيوت والطرقات بالضفادع، واستحالت مياه الأنهار والترع دماً .

وحين أُبتُلي فرعون وقومه بهذه المحن والنكبات العجيبة، صرخوا قائلين : لئن رفع الله عنا هذه النكبات، لنطلقن سراح بني إسرائيل ليذهبوا مع موسى حيث شاؤوا .. إن مطالبة سيدنا موسى التي كانت لدى الفراعنة من ذي قبل بمثابة مؤامرةٍ سياسيةٍ تهدف إلى إخراجهم من مصر، إذا بها الآن أخذت تبدولهم مرادفاً لهجرة بني إسرائيل أنفسهم !!

لا يزال المرء يتحذلق ويتلاعب بالألفاظ والعبارات، ما دام يجد نفسه في منعةٍ وحصانةٍ، ولكنه إذا سُلب هذه المنعة والحصانة، ووضُع في موضع العجز والضعف والاستكانة، فإنه لا يلبث أن يصير - فجأةً - إنساناً واقعياً، وبالتالي فهو يفهم الآن من

تلقاء نفسه مالم يكن يقرب إلى فهمه من قبل حتى بالرغم من إفهامه إياه مراراً وتكراراً، بيد أن الإقرار الحقيقي هو أن يقر المرء وهو قادر على الإنكار، وأما بعد أن سُلب القدرة والاختيار فلا عبرة بأي إقرارٍ .

﴿ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾ ﴾

وَدَمَّرْنَا: أهلكنا وخربنا .

يَعْرِشُونَ: من الجنات أو يرفعون من الأبنية.

إن العذاب الذي ينزل على أمم الأنبياء إنما ينزل بسبب تكذيبها بالآيات ، وأما النصرة الخاصة التي تنزل - في مقابل ذلك - على أتباع الأنبياء وأنصارهم، فإنما هم يستحقونها بسبب الصبر، أي الثبات والاستقامة على طريق الله مع ضبط النفس وكبت العواطف.. والمراد بالآيات دلائل الحق التي تبرهن على حقيقته ، ولكن المرء، بسبب نفسيته المتكبرة المتعجرفة، لا يقدر على الاعتراف والتسليم بها .. لقد كان فرعون مزهواً معجباً بسلطانه وحدائقه ومبانيه الفخمة، وعقب هجرة سيدنا موسى عليه السلام من مصر تم إغراق فرعون وجنوده في البحر، وقد خرّب البرد والجراد حدائق مصر البهيجة الغناء، وانهارت مبانيها الفخمة نتيجة الزلازل والهزات الشديدة .

ومن جانبٍ آخر فقد تمكن بنو إسرائيل، بعد بضعة أجيال لحقت بسيدنا موسى عليه السلام وبالضبط في زمن سيدنا داود وسيدنا سليمان - عليهما السلام - من الاستيلاء على نواحي مصر - أي بلاد الشام وفلسطين.. المكذبون بالآيات يستحقون دوماً غضب الله، والصابرون يستحقون دوماً نصرة الله وتأييده.

﴿ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۖ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾ ﴾

مُتَبَّرٌ: مهلك مدمر .

أَبْغِيكُمْ إِلَهًا: أطلب لكم إلها ومعبودا .

يَسُومُونَكُمْ: يذيقونكم أو يكلفونكم .

وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ: يستبقون ـ بناتكم للخدمة .

بَلَاءٌ: ابتلاء وامتحان بالنعم والنقم .

وصل بنو إسرائيل إلى شبه جزيرة سيناء، مروراً بالجانب الشمالي من البحر الأحمر، ثم واصلوا رحلتهم من الجهة الشمالية إلى الجهة الجنوبية على سواحل البحر، وفي أثناء ذلك أفضى بهم المسير إلى قوم كانوا مشغولين بعبادة الأصنام .. وحينئذٍ طالب بعض بني إسرائيل – وليس كلهم – بأن يُجعل لهم صنم مثل أصنامهم .

أن أكبر ضعفٍ ابْتُلي به هذا الإنسان هو عبوديته للظواهر .. فهو لا يتمكن من تركيز ذهنه كلياً على الله – المتستر وراء الغيب –، ومن ثم فلا يلبث أن يبقى متعلقاً بأحد الأشياء الظاهرية المحسوسة ، وإن هناك أناساً عديمي الشعور يركعون ويسجدون أمام أصنامٍ منحوتةٍ من الحجارة والمعادن، والذين نالوا نصيباً أكبر من الثقافة والتهذيب فهم يتخذون من أية شخصيةٍ أو أمةٍ معينةٍ، أو أي هيكل حضاريٍ مركزاً

لتوجهاتهم ومحور اهتماماتهم !! وحين اقترح بعض أفراد بني إسرائيل على سيدنا موسى عليه السلام وضع صنمٍ ظاهريٍ لهم ، فتوجه إليهم قائلاً : إن الأمر الذي تجدون القوم منهمكين في ممارسته، كله معرض للهلاك والدمار عاجلاً أو آجلاً، يعني أن رسالتنا التي نهضنا من أجلها هي أن نقوم بتحطيم كل هذه الآلهة الظاهرية الباطلة، ونربّي الإنسان على التوجه إلى الله الواحد الأحد وعبادته وحده لا غير .. فكيف يمكن إذًا أن نتخذ إلهاً ظاهرياً من هذا النوع لأنفسنا نحن ؟!

وليس المراد بقوله : ﴿ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾ ﴾ أية فضيلةٍ عنصريةٍ أوْ سلاليةٍ، بل هي فضيلة وظيفية تكليفية ، وقد ورد هذا المعنى نفسه تماماً عن الأمة المحمدية :{كنتم خير أمةٍ}. لقد جرت سنة الله تعالى بأن يأتمن طائفة ما على كتابه، وبواسطتها يبلغ رسالته إلى الأمم الأخرى ، في قديم الزمان كان بنو إسرائيل - اليهود - يتولون هذا المنصب، وبعد ختم النبوة عُهد بهذا المنصب إلى الأمة المحمدية .

أن إتاحة الفرصة لفرعون لاضطهاد بني إسرائيل، إنما كانت، بالنسبة لهم، على وجه الابتلاء وليس على وجه التعذيب ، وإنما يكون الغرض من وراء محنةٍ وابتلاء كهذا أن يتم تنبيه أهل الإيمان من الغفلة ، وحتى يُعلم مَن يتولى عن دين الله في الظروف الصعبة القاسية، ومَتن ذا الذي يثبت على دين الله صابراً محتملاً كل ما يلقاه من مكاره وصعوباتٍ على طول الطريق !

﴿ ۞ وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ

ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾

تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ: بدا له شيء من نوره تعالى .

دَكاً: مدكوكا مفتتا.

صَعِقاً: مغشيا عليه.

سُبْحَانَكَ: تنزيها لك من مشابهة خلقك .

كان سيدنا هارون الأخ الأكبر لسيدنا موسى - عليهما الصلاة والسلام - حيث كان سيدنا موسى يصغره بثلاث سنواتٍ ، بيد أن النبوة عُهد بها أصلاً إلى سيدنا موسى، وأما سيدنا هارون فإنما تم إشراكه فيها بصفته مساعداً لأخيه ، مما يوضح لنا أن الأهمية الرئيسية في توزيع المناصب الدينية، إنما هي للاستعداد وليست للسن أو الأشياء الإضافية الأخرى من هذا القبيل.. لقد أعطي لسيدنا موسى عليه السلام من الأحكام ما يتعلق بالدعوة والتبليغ ما دام في مصر، وعقب وصوله إلى صحراء سيناء، فقد دُعي إلى الجبل حيث أعُطي الأحكام التشريعية ، ومن هذا يتبين ترتيب الأحكام الإلهية .. فالمطلوب من عباد الله في الأحوال العادية أن يقوموا بإصلاح حياتهم الذاتية، ويعيشوا عابدين طائعين لله، ويضطلعوا بدعوة الآخرين إلى التوحيد والآخرة، ولكن حين يصبح أهل الإيمان جماعةً حرةً ومختارةً، كما كان بنو إسرائيل في صحراء سيناء، فيجب عليهم أيضاً أن يقيموا حياتهم الاجتماعية على أساسٍ من القوانين الشرعية .

ولما عَهد سيدنا موسى - عليه السلام - إلى أخيه سيدنا هارون عليه السلام بالإشراف على بني إسرائيل في أثناء غيابه، نصح له قائلاً : ﴿ وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾ ﴾ ، ونعلم من هذا ما هو المبدأ الأساسي الذي لابد من الالتزام به لأي زعيمٍ اجتماعيٍ يريد القيام بالمسئوليات المنوطة به خير قيامٍ، وذلك المبدأ هو : الإصلاح وعدم اتباع المفسدين .. والمراد بالإصلاح هو محاولة الإبقاء على توازن العدل بين مختلف

أفراد المجتمع، وعدم الإخلال به في أي حالٍ من الأحوال ، فيحصل لكل أحدٍ ما ينبغي أن يحصل له بمقتضى العدل، ويُنتزع من كل أحدٍ ما ينبغي أن يُنتزع منه بمقتضى العدل كذلك .

وكثيراً ما يقع الخلل والاضطراب بهذا العمل الإصلاحي فيما إذا أخذ الزعيم أو الرئيس في اتباع «المفسدين»، ويتخذ هذا الاتباع أشكالاً شتى ، فقد يكون ذلك في صورة اقتناع الرئيس العاجل - أى من غير تمحيصٍ ولا تدقيقٍ - بكل ما يقول له خاصيته بناءً على أغراضهم الذاتية، وقد يتمثل في لجوئه إلى الصمت خوفاً من قوة المفسدين وشدة بأسهم.

رغب سيدنا موسى عليه السلام في رؤية الله - سبحانه وتعالى، ولما علم أنه لن يتمكن من رؤيته تعالى (في هذه الدنيا)، أسرع إلى التوبة وإقرار الإيمان بالغيب ، وامتحان الإنسان هو أن يؤمن بالله وبالغيب، أي بدون أن يراه رأْي العين، إن رؤية الله - سبحانه وتعالى - جائزة أخروية، فكيف يمكن إذن أن يتحقق ذلك في العالم الراهن ؟

﴿ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا ۚ سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾ ﴾

الأَلْوَاحِ: ألواح التوراة .

كان سيدنا موسى - عليه السلام - قد أُعطي النبوة للمرة الأولى على الجبل، ثم دُعي مرةً أخرى إلى الجبل ذاته حيث أُعطي أحكام التوراة ، مما يتضمن إشارةً إلى أن أنسب مكانٍ للحصول على فيض الله هو بيئة الفطرة دون بيئة التجمعات البشرية، فحين يصل المرء إلى عالم الأحجار والأشجار المستغرق في هدوءٍ وصمتٍ عميقٍ،

منصرفاً عن عالم البشر الصاخب، يبدأ يشعر بالدنو والقرب من الله تعالى، فإنه يخلو إذ ذاك من كل الأحاسيس المصطَنعة الطارئة، ويعود إلى حالته الفطرية، وإنها بالنسبة لأحد الناس أفضل ساعةٍ يتمكن فيها من التأمل والتفكير وفق المنهج الفطري الخالص ويتصل بربه منقطعاً عن كل ما عداه .

إنما يكون النبي بشراً من البشر، فهو لا يكون مخلوقاً غير بشريٍ من أية ناحيةٍ ، وإنما هو يمتاز بسمةٍ واحدةٍ، وهي أنه يُوفق للحفاظ على استعداده الفطري مما يؤهله لكي يصطفيه الله تعالى لحمل رسالته، والقيام بتمثيله الموثوق به بين الناس ، وبما أن سيدنا موسى عليه السلام كان أفضل شخصٍ من بين أبناء شعبه، لذا فقد اصطفاه الله نبياً له، وأنزل عليه كلامه ، ومع أن كلام الله يتضمن كل التفاصيل الضرورية المتعلقة بموضوع الهداية، إلا أن بيانها يتم بالألفاظ، وفي عالم الامتحان الراهن يبقى الاحتمال قائماً أن يتناول المرء هذه الألفاظ بالتفسير الخاطئ المعوجّ، ويسبغ عليها مفهوماً غير ما أُريد بها في واقع الأمر .. بيد أن الشخص الذي يكون جاداً في أمر الهداية، والذي يخاف من بطش الله، فإنه لا يستخرج من هذه الألفاظ إلا المعنى الذي يليق بكلام الله، وليس الذي يتفق مع هوى نفسه .

وقوله : ﴿ سَأُوْرِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾ ﴾ يعنى أنك فى خلال رحلتك هذه ستمر بأطلال وخرائب تلك الأمم التي كانت قد أعطيت هداية الله من ذى قبل، ولكنها فشلت في الاحتفاظ والتمسك بها بقوةٍ، ولم تتمكن من الثبات والاستقامة عليها لانكسارها أمام ضغط الظروف أو جماح العواطف، فما كان مصيرها إلا أن أُهلكت ودُمّرت ديارها .

وإنه لن يختلف مصيرك أنت الآخر في الدنيا والآخرة عن مصير الأمم السابقة فيما لو صنعت صنيعها، وحذوت حذوها .. فإن الله يعامل كل الشعوب والأمم معاملةً واحدةً ولا فرق في ميزان العدالة الإلهية بين شعبٍ وشعبٍ وآخر .

﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَـٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَـٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْـَٔاخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾ ﴾

سَبِيلَ الرُّشْدِ : طريق الهدى والسداد .

سَبِيلَ الغَيِّ: طريق الضلال والفساد.

حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ: بطلت أعمالهم لكفرهم .

لممارسة الحياة في هذه الدنيا صورتان : إحداهما : أن يكون المرء قد فتح سمعه وأبصاره، فينظر إلى الأشياء ويسمعها كما هي في ألوانها الحقيقية ، وإن شخصاً كهذا لا يلبث أن يعرف الحق إذا ما ظهر أمامه، ولا يلبث كذلك أن يدرك الدرس الذي تعلمه الآيات الإلهية المنبثة في أنحاء العالم.

وأما الصورة الأخرى : فهي أن يعيش المرء ومِلْء إهابه الكبرياء والعجرفة، وهو يسكن في الأرض وكأنه مالكها، ولا يشغل باله أي شيءٍ آخر سوى ميوله ودواعيه الذاتية، وهو يظن أن كل ما يناله بسبب مؤهلاته الشخصية. وهو بذلك لا يشعر بحاجةٍ ما إلى أن يراعي مرضاة أحدٍ سواه في استخدام الأشياء المتاحة له، وسيقف استغناء هذا الشخص الأخير حجر عثرةٍ دون قبوله للحق .

إن نفسية الشخص الأول تكون نفسية المتلقي، وهو بسبب انفتاح ذهنه يتمكن من أن يقرأ كل إشارةٍ من إشارات الله، وبالتالي فلا يلبث أن يصوغ نفسه بحسب مقتضاها على الفور.. وعلى نقيضٍ من ذلك فإن نفسية الشخص الأخير تكون نفسية الاستغناء ، فدلائل الحق تظهر أمامه، ولكنه يعرض عنها لاعتباره إياها غير هامةٍ ، والطبيعة تترنم

فيما حوله بأنغامها العلوية بلغةٍ صامتةٍ، ولكنه لا يراها تستحق العناية والاهتمام ولا يشعر برغبةٍ ما إلى أي صدقٍ خارج ذاته هو .. وإن العالم الآتي من بعد الموت ليس إلا للنوع الأول من الناس، وأما النوع الأخير من الناس فإنهم سيُهملون في عالم الله الأبدي تماماً ،كما كانوا قد أهملوا أمر الله في عالم الامتحان الراهن .

إن طريق الغي والضلالة يتكون تحت دوافع النفس، وأما طريق الرشد والهداية فهو الذي يبرز إلى الوجود من أجل الله وحده مع الترفع عن كل مؤثرات النفس والبيئة ، ومن ثم فالذين يعيشون على مستوى ذاتهم، والذين لا يعلمون غير الدواعي المنبعثة داخل أنفسهم، سوف لا يلبثون أن يندفعوا نحو طريق الضلالة باعتباره عين ما تأنس به وتتوق إليه نفوسهم، بينما يبدو لهم طريق الهداية، من حيث طبيعتهم ومزاجهم، غريباً ومجهولاً، ولذا فسوف لا يحالفهم التوفيق للتقدم نحوه ، يسهل على نفسية الكبرياء أن تتلقى بالقبول أمراً لا يمس كبرياءها، وأما الأمر الذي يمس كبرياءها فإنها لا تعيره أي اهتمامٍ ولا تلقي له بالاً .

﴿ وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾ وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا۟ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا۟ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾ ﴾

كانت طائفة بني إسرائيل حينذاك تضم رجلاً داهيةً خبيثاً يُدعى السامري، فعندما

ذهب سيدنا موسى إلى الجبل، تاركاً بني إسرائيل تحت إشراف سيدنا هارون، قام الرجل بإغواء القوم وإضلالهم ، فقد أخذ ما كان لديهم من الحليّ، وصاغها عجلاً، وقد تم إعداد هذا التمثال، تمشياً مع فن صناعة الأصنام المصري القديم، بحيث إنه كان يخرج من فمه صوت كخوار البقر حين يدخل فيه الهواء . والناس عادةً يكونون مولَعين بالأعاجيب، ومن ثم فما لبث القوم أن وقعوا في الفتنة بشيء تافهٍ كهذا ونسجوا حوله مفهوم الألوهية، ولقد نجح رجل ماكر خبيث في استقطاب جموعٍ غفيرةٍ من الجماهير حول نفسه باستغلال مشاعرها، وقد استفحل أمره، وعمت به البلوى لدرجة أنه لم يقم أحد منهم حتى بالاحتجاج الصريح ضد هذا الانحراف الشائن ماعدا سيدنا هارون وبضعة من أصحابه - في أغلب الظن - ومن الظاهر أن التيار الجماهيري العنيف قد طغى على صوت نائب الرسول وجعله خافتاً لا يحرك ساكناً، فكيف يتمكن أحد غيره من أن يرفع عقيرته هناك ؟ !

وقد امتازت الجماهير في كل العصور بهذه النزعة ذاتها، ولم يطرأ عليها شيء من التغيير حتى أيامنا هذه ، فاليوم أيضاً يستطيع أحد الدهاة الماكرين أن يستقطب حشداً كبيراً من الناس على أي نوع من «الخوار» عن طريق كتاباته وخطبه الرائعة ، فالعوام لا يفكرون في أن الشيء الذي يلتفون حوله لا يعدو أن يكون مجرد ألعوبةٍ ومهزلةٍ، وليس حقيقةً ما في واقع الأمر ، ولو أن رجلاً جاداً تناول هذه المهزلة بالكشف عن حقيقتها، فإنه يلقى المصير نفسه الذي لقيه سيدنا هارون من بني إسرائيل.. ولما رأي سيدنا موسى عليه السلام أن بني إسرائيل مشغولون بفعلٍ وثني، خُيّل إليه أن سيدنا هارون قد قصر في نهيهم عن ذلك وإصلاحهم، فلم يلبث أن أخذ برأس أخيه في سَوْرَةِ الغضب، ولكنه لم يكد يقتنع ببراءة هارون من التقصير في محاولته الإصلاحية، حتى كف يده عنه على الفور، وأخذ يدعو الله سائلاً إياه الرحمة والغفران لنفسه ولأخيه .. وإن لمن المحتمل أن يقع أحد المؤمنين بالنسبة لأخيه المؤمن في سوء فهمٍ على اختلاف أنواعه وأشكاله، إلا أنه بعد أن يتبين جلية الأمر يصبح كأنه لم يقع في سوء فهم ما بالنسبة

لأخيه قط!

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ وَٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾ ﴾

لماذا أطلق القرآن هنا على ما اتخذه بنو إسرائيل من العجل وصف «الافتراء» ؟ ! السبب في ذلك هو أنهم كانوا قد مارسوا هذا العمل الباطل باسم الحق؛ إنهم لم يفعلوا ذلك منكرين لدين الله، بل كانوا قد فعلوه مؤمنين بدين الله ، وكانوا يستخدمون الألفاظ والمصطلحات الدينية لنعت انحرافهم عن الدين ذاك ، فقد كانوا يقولون، شأن العقيدة الشائعة بين المشركين، بأن الله قد حلّ وتجسّد في هذا التمثال المسبوك ، ولذا فعبادته مرادفة لعبادة الله ذاتها ، وحتى إن السامري، الذي تولى كبر هذا الصنيع، لم يلبث أن اكتشف دليل الكشف والكرامة في حقه، فقال : إنني رأيت فيما يراه النائم، أن جبرائيل قد جاء؛ فعمدت أنا إلى أثر حافر فرسه، وأخذت من هناك قبضةً من التراب، فصنعت عجلاً وقذفت فيه ذلك التراب فإذا بالعجل أخذ يصوتّ ببركة التراب المقدس !! وكأن السامري وأصحابه كانوا ينسبون بذلك إلى الله أمراً ما أنزل الله به من سلطانٍ، وهذا هو الافتراء عينه.

وحين تمارس أية طائفةٍ أمينةٍ على الدين هذا النوع من الافتراء، فتصبغ انحرافها الديني بصبغة الدين الحق، فإنها تتسبب بذلك في إثارة غضب الله على وجهٍ شديدٍ، وبالتالي يتم القضاء بالنسبة إليها بعقوبةٍ مخزيةٍ تذوقها هنا في هذه الحياة الدنيا ذاتها.. وقد تمثلت عقوبة بني إسرائيل الدنيوية هذه فيما أمر به سيدنا موسى عليه السلام أن يبطش المسئولون المخلصون عن كل قبيلةٍ من قبائلهم، بالذين لهم يد في عملية صنع العجل، وكانوا شركاء مباشرين في تأجيج نار هذه الفتنة؛ فأمسى القوم بين قاتلٍ وقتيلٍ، حيث قتل أبرياء كل قبيلةٍ المجرمين المنتمين إليها بأيديهم ، ولم يتخلص من هذه العاقبة المؤلمة

سوى أولئك الذين ندموا أشد الندم على فعلهم هذا، وبادروا بالاعتراف بجريمتهم، وتابوا إلى الله توبةً نصوحاً .

وقد تم تنفيذ العقوبة التي قضى الله بها على جريمة بني إسرائيل بواسطة سيوفهم الذاتية ، بيد أن قضاءً من هذا النوع يتم تنفيذه في بعض الأحيان بواسطة سيوف الأجانب، ويتحقق ذلك النوع بسيوف الأجانب فيما إذا أريد ضم الخزي والهوان إلى جانب العقوبة .

التوبة هي أن يشعر المرء بالندم الشديد على ما صدر منه من الذنب ، فإن حقيقة التوبة الجوهرية هي الندم ، وهذا الندم هو ضمان لتصميم المرء على أنه لن يعود إلى ارتكاب مثل هذا الذنب في القادم، وحين يقيم أي مذنبٍ الدليل على ندمه، ويعقد العزم على الأخذ بالحذر والاحتياط في المستقبل، فكأنما هو يؤمن من جديدٍ، ويدخل إلى دين الله ثانيةً، بعد أن كان قد خرج منه.

﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ ۖ وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾ وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَـٰتِنَا ۖ فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّىَ ۖ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ ۖ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ ۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَـٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ۞ وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ۚ قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ۖ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ﴾

سَكَتَ: سكن .

أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ: الزلزلة الشديدة أو الصاعقة.

فِتْنَتُكَ: محنتك وابتلاؤك.

هُدْنَا إِلَيْكَ: تبنا ورجعنا إليك.

إن اتخاذ بني إسرائيل العجل كان قد كشف عن كونهم دون الدرجة المطلوبة من اليقين بالله تعالى، ومن ثم فقد تم استقدامهم إلى الجبل، وتوجه سيدنا موسى عليه السلام مرةً أخرى إلى جبل الطور وفقاً للموعد الذي وعده الله إياه، برفقة سبعين رجلاً من خيرة بني إسرائيل ، وقد أوجد الله هناك، من خلال الرعد والبرق والزلزلة الشديدة، أحوالاً من شأنها أن تولد مشاعر الخشية والإنابة في نفوس بني إسرائيل ، وقد حدث بعد ذلك أن مثُل هؤلاء بين يدي الله يبكون ويتضرعون، وتابوا إليه تعالى توبةً جماعيةً، وعاهدوه أنهم سيعملون بأحكام التوراة بصدقٍ وإخلاصٍ ، وفي هذه المناسبة دعا سيدنا موسى عليه السلام فقال : « .. (يارب) .. ﴿ وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ﴾ فأجاب الله تعالى قائلاً : ﴿ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ۖ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ﴾.

لقد كان دعاء سيدنا موسى عليه السلام عاما شاملاً لأمته بأسرها، ولكن الله - سبحانه وتعالى - أوضح في جوابه أن النجاة والفلاح، وإنما يتم القضاء بهما لكل فردٍ على حدةٍ، وبناء على عمله الذاتي، وعلى أنني أرحم الراحمين، إلا أن الشخص الذي لا يقيم الدليل على العمل الصالح، فإنه لن ينجو من بطشي وعقابي، مهما كان شعبه الذي ينتمي إليه!!

إن كتاب الله يكون جامعاً بين الرحمة والهداية، فهو خير هادٍ ومرشدٍ للمرء في الحياة الدنيا وأضمن وسيلةٍ لنيل رحمة الله في الآخرة، غير أن فائدة كتاب الله هذه لا تعود إلا على الذي تنطوي جوانحه على «الرهبة»، والذي يكون دائم الحذر والخوف مما عسى أن يفعل الله به غداً!! . وهؤلاء هم الباحثون الصادقون عن الحق، وحين يظهر الحق أمامهم فلا يلبثون أن يدركوه من غير أن يصابوا بأي نوعٍ من التعقيدات النفسية ، وبعدئذٍ يصبح الله مركز رجائهم وخوفهم، ويصير كل ما عندهم من نفسٍ ونفيسٍ وقفاً

لله تعالى، وتعمل الرهبة المستقرة في قلوبهم على إيقاظ شعورهم ووعْيهم، فترتفع كل الحجب الاصطناعية عن أعينهم، وهم لا يخطئون أبداً في معرفة الآيات المتجلية من قبل الله تعالى .. إنهم أناس يعيشون في نفسية الرهبة والخوف، وليس في نفسية القناعة والطمأنينة .

﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾

إِصْرَهُمْ: عهدهم بالعمل بما في التوراة.

وَالأَغْلالَ: التكاليف الشاقة في التوراة .

وَعَزَّرُوهُ: وقروه وعظموه .

لقد كان عهد بني إسرائيل بالأنبياء أنهم مازالوا يُبعثون في شعبهم منذ قديم الزمان، وبما أن النبي الأخير كان مبعوثاً في بني إسماعيل، وفقاً لتدبير الله تعالى، لذا فقد أخبرهم الله تعالى بذلك مسبقاً على ألسنة أنبيائهم ، ولم تزل كتبهم وأسفارهم حافلةً بالكثير من النبوءات والبشارات المتصلة بالموضوع حتى يوم الناس هذا . وإنما حدث ذلك لكي لا يقع هؤلاء في أية فتنةٍ عظيمة، فيما إذا بُعث هذا النبي الأخير، وبالتالي يتمكنون من معرفته بتمام السهولة، وينضوون تحت رايته .

لقد كان رسول الإسلام أمّيّاً، لم يتعلم شيئاً من القراءة ولا الكتابة، واقتران النبوة بالأمية، هو من سنة الله الدائمة ، حيث إن المعرفة الإلهية يتم إظهارها دوْماً على مستوى «الأمية»، أي أن إعلانها يتم بواسطة شخصٍ لا يُعد في ضوء المعيار الدنيوي، أهلاً

للقيام بمهمةٍ عظيمةٍ من هذا النوع، فلم يحدث قط، على امتداد التاريخ البشري كله، أن بعث الله «أبقراط» و«أفلاطون» وأمثالهما برسالته إلى الناس !!

إن روح الدين الأصيل هو مخافة الله والآخرة، ولكن، بعد مضي الزمن، حين يُصاب الروح الداخلي بالخمود، يشتد الاهتمام بالظواهر والمظاهر الخارجية .. فيتم تخريج مسائل جديدةٍ من خلال تخرصاتٍ وتفريعاتٍ غير ضروريةٍ، ويُقام هيكل متكامل الأبعاد يتم تشكيله من ضروب التمارين والرياضات المخترَعة باسم الروحانيات، وتحيط بالأوهام والخزعبلات الشعبية هالة من القدسية، تتحول معها إلى شريعةٍ جديدةٍ قائمةٍ بذاتها .. وكان اليهود قد وصل بهم الأمر إلى هذا الحد ذاته، حيث كانوا قد اتخذوا هيكلاً مزعوماً من القيود والأوهام نُسجت باسم الدين الإلهي، وكانوا يحسبون أنه دين الله عينه .. وقد عرض عليهم رسول الإسلام ﷺ الدين في وضعه الفطري السليم، فألغى القيود والتكاليف غير الضرورية كلها، وأرشدهم إلى معالم الدين الحق البسيط .

وأكبر حسنةٍ، حين يأتي النبي، هي المبادرة إلى الإيمان به، غير أن هذا الإيمان ليس النطق بكلمةٍ ما بالمعنى العام، إنما هو خروج من دين الهيكل الجامد والدخول إلى دين الشعور الحي اليقظ، وإن ارتباط المرء بالهيكل الديني السابق إنما يكون نتاجاً للتقاليد التاريخية، أو امتداداً للعادات والأعراف الشعبية .. ولكن يعتنق دين النبي الجديد، إنما يعتنقه بناءً على قرارٍ شعوريٍ واعٍ، فهو يدخل إلى دائرة الحقيقة بعدما خرج من إطار المظاهر والرسميات.. وإن هذا ليبدو، في بادئ الرأي، أمراً يسيراً، غير أنه أصعب وأشق ما يكون على الإنسان في كل العصور .

﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ

يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾

وَبِهِ يَعْدِلُونَ: بالحق يحكمون في الخصومات بينهم .

ليس معنى قوله :﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ أن سائر الأنبياء الآخرين كانوا أنبياء قوميين، وأن رسول الله ﷺ كان نبياً دولياً أو عالمياً، وإنما قيل ذلك بياناً للأمر الواقع المحكوم بالجغرافيا وندرة المواصلات وقلة الشرائع .

والأصل أن رسول الإسلام له بعثتان : مباشرة، وعن طريق أمته . فقد كانت بعثة محمدﷺ المباشرة للعرب - في بداية الدعوة من الناحية الواقعية - حيث قال تعالى: ﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ [الأنعام: ٩٢] .. ثم انطلق الرسول من هذه المرحلة إلى البعثة العامة للعالم أجمع، قال تعالى : ﴿ لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ [الحج: ٧٨] . وهذه الرسالة العامة ذاتها كانت حكماً لبعثة أنبياء الله قاطبةً ، غير أن الدين الذى جاء به الأنبياء الآخرون لم يعد محفوظاً وليست به شرائع صالحة، ولذا فما أمكنهم أن يكونوا مبشرين ومنذرين للعالم أجمع .

إن التبشير بالديانة المسيحية يجري على قدمٍ وساقٍ في كل أنحاء العالم اليوم، ولكن بالرغم من ذلك، ظلت نبوة سيدنا المسيح عليه السلام منحصرةً في حدود فلسطين وحدها؛ لأن تعاليمه عليه السلام لم تعدْ من بعده باقيةً في حالتها الأصلية الأولى .. والديانة التي تصل إلى الناس اليوم باسم المسيحية، هي، في الحقيقة، ديانة القديس بولس، وليست ديانة السيد المسيح عليه السلام وهذا يعني أن الفرق في اتساع دائرة العمل وشمولها بين نبيٍ وآخر إنما هو من حيث الواقع وليس من حيث التفويض، تتضمن التوراة نبوءةً عن النبي العربي تقول : «.. وتتبارك (فيه) جميع قبائل الأرض» (سفر التكوين : ١٢ : ٢٣) . وما أمكن وصول بركته - عليه الصلاة والسلام - إلى شعوب الأرض قاطبةً، إلا

لكون دينه الذي جاء به محفوظاً، على العكس من دين موسى وعيسى - عليهما السلام.

لقد كانت هناك قبائل يهودية تقطن بالجزيرة العربية، وقد كان هؤلاء يفتخرون بأن لديهم كتابَ الله المقدس، وأمثال هؤلاء - الفخورين بما عندهم - يكونون دوْماً أشد الناس عناداً نحو حقٍ خارج ذواتهم؛ فإن شعورهم بأنهم متمسكون بالصدق الأعظم يحول دون قبولهم بالحق الذي يجيء به أحد سواهم.. وهكذا كان شأن اليهود تماماً، حيث أصيبت أغلبيتهم الساحقة بنفسيات العناد والتعصب الأعمى، وما خرج منهم سوى نفرٍ قليل العدد - كعبد الله بن سلام وغيره - الذين نظروا إلى الإسلام بذهنٍ مفتوحٍ؛ فشهدوا بصدقه غير مكترثين لأوضاعهم وعزتهم الدنيوية، وبالتالي سخّروا حياتهم الدنيوية لخدمته.

﴿ ٱلنَّبِيِّ ٱلْأُمِّيِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ ﴾ أى توجيهاته وإرشاداته، تدل هذه الجملة على الفرق بين إله الفلاسفة وبين إله النبى، فإله الفلسفى روحٍ مجردةٍ، والإيمان بها يشبه تماماً الإيمان بوجود الجاذبية في الكون، وقوة الجاذبية لا تنطق ولا تأمر بشيء ما .. بينما إله النبي هو إله حي وعاقل، ويأمر عباده بما يشاء، ويجزيهم بالخير أو الشر على امتثالهم لأمره أو مخالفتهم إياه.

﴿ وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۚ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾ وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٰٔتِكُمْ ۚ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟

يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾

وَقَطَّعْنَاهُمُ: فرقناهم .

أَسْبَاطاً: جماعا ، كالقبائل في العرب .

فَانْبَجَسَتْ: فانفجرت .

مَّشْرَبَهُمْ: عينهم الخاصة بهم.

الغَمَامَ: السحاب الأبيض الرقيق .

المَنَّ: مادة صمغية حلوة كالعسل .

وَالسَّلْوَى: الطائر المعروف بالسماني.

وَقُولُوا حِطَّةٌ: مسألتنا حط ذنوبنا عنا .

رِجْزاً: عذابا (الطاعون) .

لقد أخرج الله بني إسرائيل من بيئة مصر الوثنية وأوصلهم إلى صحراء سيناء، وقد تم هنا تنظيم شئونهم، حيث فُرقوا اثنتي عشرة جماعةً، وعُين على كل جماعةٍ رقيب أو مشرف، وكان سيدنا موسى عليه السلام مشرفاً على الجميع .

ثم أُتيح لبني إسرائيل كل حاجات الحياة الضرورية على وجهٍ خصوصيٍ، فقد تم توفير المياه لهم من خلال تفجير العيون من الحجر، وفي رحاب الصحراء المترامية الأطرف تم تظليلهم بالغمام على نحوٍ مستمرٍ، ونزل المن والسلوى كغذاءٍ لهم كانوا يجدونه من غير عملٍ ولا كدٍ أمام خيامهم، كما تم تخويلهم مدينة أريحا - الواقعة بالجانب الشرقي من وادي الأردن - بأكملها، لكي يتخذوا بها مساكنهم وبيوتهم .. وكأنما قال الله لهم : إني قد وفرت لكم كل ما تحتاجون إليه، فلا تندفعوا الآن وراء الأشياء النجسة بدافع الحرص وابتغاء اللذة وبدلاً من ذلك عليكم أن تختاروا طريق

القناعة والشكر لله .

ولكن اليهود ذهلوا عن وصايا الله كلها، وبدؤوا باتباع سبلٍ مزعومة اختُرعت باسم الله، بدلاً من اتباع صراط الله المستقيم، وسلكوا مسلك العناد والطغيان بدلاً من العجز والتواضع، وبدل أن ينطقوا بكلمة الشكر أخذوا يرددون كلمات الجزع وقلة الصبر .. وحين توصل اليهود إلى هذا الحد من الفساد والانحراف، استردّ الله منهم كل عناياته وهباته، وإذا بهم أضحوا محاطين بصنوف العذاب بدلاً من الرّحمة .

﴿ وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ ۙ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ۙ ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ ﴾

حَاضِرَةَ الْبَحْرِ: قريبة من البحر .

يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ: يعتدون بالصيد المحرم فيه.

يَوْمَ سَبْتِهِمْ: يوم تعظيمهم أمر السبت.

شُرَّعاً: ظاهرة على وجه الماء كثيرة .

لاَ يَسْبِتُونَ : لا يراعون أمر السبت.

نَبْلُوهُم: نمتحنهم ونختبرهم بالشدة.

مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ: نعظهم اعتذارا إليه تعالى.

لقد أُمر اليهود بأن يجعلوا يوماً من أيام الأسبوع - وهو يوم السبت - خاصاً بالعبادة وذكر الله عز وجل ، ولا يشتغلوا في ذلك اليوم بأي عملٍ معيشي . وقد جاء في التوراة بهذا الخصوص مانصه : «.. فتحفظون السبت، لأنه مقدس لكم، من دَنَّسَه

يُقتل قتلاً، إن كل من صنع فيه عملاً تُقطع تلك النفس من بين شعبها » (يُراجع سفر الخروج : الإصحاح الحادي والثلاثون) .

ولكن عندما تسرب الفساد إلى اليهود أخذوا في العمل بخلاف ذلك تماماً .. وقد أطلق مصلحوهم صرخة النعي والإنكار على انحرافهم، إلا أنهم يرعووا عن ذلك، بل تمادوا في الغي والعناد .. بيد أن المصلحين ظلوا يواصلون جهودهم الإصلاحية بدون انقطاع .. والحقيقة هي أن عملية الإصلاح للآخرين، وإن كانت، فيما يبدو، تُمارس من أجل الآخرين غير أنها لا تُمارس إلا من أجل أنفسنا ، من حيث إن الباعث الحقيقي على ذلك هو إبراء ذمتنا عند الله تعالى، وإنه سيقف المرء في منتصف الطريق في حالة ما إذا لم يكن هذا الباعث حياً، ولن يتمكن بالتالي من الاستمرار في نشاطه الإصلاحي والتبليغي حتى الساعة الأخيرة .. وكانت النتيجة لتمرد اليهود وطغيانهم أن شُدد عليهم الأمر إلى حدٍ كبيرٍ ، وقد كانت مساكن اليهود بمدينة أيْلة التي تقع على شاطئ الخليج الشرقي من بحر القلزم، وقد كان صيد الأسماك هو المورد الرئيسي لمعيشتهم ، وحدث - بمشيئة الله - أن ازْداد مجيء الأسماك على سواحلهم في يوم السبت ازدياداً كبيراً جداً، بينما لم تكن الأسماك تأتي في الأيام الستة الباقية - عدا السبت - إلا قليلاً ، ولكنها كانت تغطي وجه الماء لكثرتها في اليوم المحظور اصطيادها فيه - أي السبت .

ولقد كان ذلك ابتلاء قاسياً جداً بالنسبة لليهود، من حيث إنه لم تعدْ فرصة الصيد الآن متاحةً لهم - بسبب هذا الوضع المنقلب - إلا في اليوم المحرم ذاته ، على حين أن فرصة الصيد كانت متاحةً من ذي قبل خلال الأيام الستة المشروعة عدا السبت ، ومن هنا بدأ اليهود يحتالون في استحلال ما حرم الله ، فلم يكونوا يصطادون يوم السبت، بيْد أنهم اتخذوا حياضاً يسوقون إليها مياه البحر، بحيث أن الأسماك إذا كثرت وأخذت تطفو على سطح الماء في يوم السبت، كانت تنتقل تلقائياً عبر القنوات والجداول إلى حياضهم خارج البحر، وبعدئذٍ كانوا يسدّون بدورهم منافذ الحياض، حتى لا تعود الأسماك إلى البحر، ثم كانوا يأخذونها في اليوم التالي - الأحد - وهكذا كان القوم

يحاولون تبرير فعلٍ غير مشروعٍ حتى لا يصدق عليهم الحكم القائل بأنهم قاموا بالصيد في يوم السبت .

﴿ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ ﴿١٦٦﴾ ﴾

بِعَذَابٍ بَئِيسٍ: شديد وجيع .

عَتَوْا: استكبروا .

قِرَدَةً خَاسِئِينَ: أذلاء معذبين كالكلاب.

إن إتيان فعلٍ نهى الله عنه هو الذنب، وأما إتيان الفعل المحرم **بعد** استحلاله عن طريق الحيل فهو إضافة للعتو والطغيان إلى الذنب ، ولقد ارتكب اليهود جريمةً كهذه حين خالفوا قانون السبت ، ويصبح أمثال هؤلاء الطغاة مستحقين للعنة الله، يعني أنهم يعودون محرومين من عنايات الله تلك، التي هي خاصة بالإنسان وحده في هذه الدنيا، ويهبط أمثال هؤلاء من مستوى الإنسانية إلى مستوى الحيوانية، وقد عُومل العصاة لقانون السبت هذه المعاملة ذاتها.. وليس معنى قوله : ﴿ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ ﴿١٦٦﴾ ﴾ أن تحولت صورتهم إلى صورة القردة، بل يعني ذلك، كما قال الإمام الراغب: أن أخلاقهم جُعلت كأخلاق القردة، وإن لم تكن صورتهم كصورتها .. : (المفردات في غريب القرآن) .. ورُوي عن مجاهدٍ : أنه إنما مُسخت قلوبهم، ورُدّت أفهامهم كأفهام القردة.. (القرطبى).

الإنسان مخلوق أودع فيه خالقه العقل والضمير، وحين تنبعث في داخله رغبة ما، فينشط عقله وضميره من فورهما، ويمليان عليه السؤال عما إذا كان من الجائز له أن يأتي ذلك أم لا ؟

وأما شأن القرد فهو على نقيضٍ من ذلك تماماً، حيث لا يحول بين رغبته وعمله أي شيءٍ، فحين تسول له نفسه أمراً يقدم عليه تواً، وهو لا يشعر بحاجةٍ ما إلى الأخذ بالروية والتأني في رغبته، ولا إلى الندم والتأسف على ما يعمله انسياقاً وراء رغبته الجامحة تلك .. إذًا فصيرورة الإنسان قرداً يعني أن ينعدم ويتلاشى في داخله هذا النوع من المشاعر والأحاسيس اللطيفة؛ نتيجة استمراره وتماديه في العمل بخلاف ما يدعو إليه عقله وضميره، وبالتالي فهو لا يلبث أن يأخذ في تحقيق كل رغبةٍ تتولد في قلبه ، وكلما قدر على أي شخصٍ فلا يمنعه شيء من انتهاك عرضه واغتصاب ماله ، وإذا أساء إليه أحد إساءةً ما، تصدى من فوره لإهانته وتشويه سمعته ، وإذا نشب الخلاف بينه وبين أحدٍ من الناس، ثار ثائره وكشر له عن أنيابه، وإذا رأي أحدَ الناس واقفاً في وجهه، أعلن عليه حرباً لا هوادة فيها .

الإنسان الحق هو الذي يستحضر دوماً رقابة الله عليه، فيُلجم نفسه بلجامٍ من خشية الله، وأما الإنسان القرد فهو الذي ينطلق يفعل كل ما تدعو إليه نفسه متحرراً من كل القيود.

النهْي عن السوء نوع من إعلان البراءة ، ومن ثم فحين تحلّ عقوبة الله هذه بطائفةٍ ما، فإن الله ينجي من التعرض لها أولئك الذين بلغوا من الاستياء وعدم الرضا بالسوء حداً يصحبون معه الناهين عنه.

﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾ وَقَطَّعْنَـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا ۖ مِّنْهُمُ ٱلصَّـٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَبَلَوْنَـٰهُم بِٱلْحَسَنَـٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾ ﴾

تَأَذَّنَ رَبُّكَ: أعلم ، أو عزم وقضى .

يَسُومُهُمْ: يذيقهم ويكلفهم.

وَبَلَوْنَاهُم: امتحناهم واختبرناهم.

لقد جاءت العقوبة التي تم إعلانها لليهود في هذه الآيات مشفوعةً بشرط ﴿ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴾ مما يوضح أنها عقوبة لها صلة بالحياة الدنيا، وأما ما يتعلق بمصير القوم في الآخرة، فهو منفصل عن ذلك، وقد ورد ذكره في مواضع عديدةٍ أخرى من القرآن الكريم .

وإنه حين يتم تقرير جائزةٍ عظيمةٍ على إتيان عملٍ ما، فإنما يعني ذلك - طبعاً - أن عقوبة تركه هي الأخرى ستكون عظيمة ، وهكذا شأن أمة ائْتُمنت على الكتاب السماوي، وكان الله تعالى قد عين اليهود في هذا المنصب ذاته - أي منصب حمل الرسالة السماوية - ومن ثم فقد أعطاهم الله جوائز وإنعاماتٍ غير عاديةٍ في هذه الدنيا أيضاً، علاوةً على ما وعدهم به من نعيم الآخرة، غير أن اليهود عصوا الله فتمادوا في العصيان وظلوا يمارسون اللادينية باسم الدين، وكانت نتيجة ذلك أن نحاهم الله عن منصب الفضيلة، وقضى عليهم بألا يبرحوا يذوقون عقوبة الله ما دامت السماوات والأرض .. ويُضاف إلى ذلك ما سيواجهونه حتماً في الآخرة .

وليس معنى ذلك أنهم لن يمروا الآن بأحوال الرخاء والسعادة أبداً حتى تقوم الساعة .. فقد صرحت هذه الآيات ذاتها بأن هناك مراحل ((الحسنات)) أيضاً، وستكون لهم وقفات قصيرة أو طولية عندها خلال مسيرتهم التاريخية .. إلا أن مرحلة ((الحسنة)) هذه ستكون هي الأخرى بالنسبة لهم نوعاً من العتاب، حتى يزدادوا بغياً وعناداً فيستحقوا عذاباً أشد وأقسى .. وقد ذكرت هذه الآيات عقوبتين لليهود، أما إحداهما: فهي أنه سيتم إتاحة السلطة والغلبة عليهم لأقوامٍ تتخذ منهم هدفاً للظلم والاضطهاد .. والتاريخ يشهد بأن اليهود تعرضوا تارةً لشدائد بنوخد نصر (بختنصر) وتيتوس الروماني، وقد جُعلوا تارةً أخرى تحت رحمة المسلمين وقهرهم، وفي العصر

الحاضر ما إن تمكنوا من بسط نفوذهم الاقتصادي الهائل في أوربا الشرقية، قام ((هتلر)) بتدميرهم وإبادتهم قتلاً وتشريداً في الأرض .. ولعل اجتماعهم الأخير في الأرض المقدسة ليس - على ما يبدو - إلا علامةً على أن قوتهم ستتعرض بأكملها - عاجلاً أو آجلاً - للهلاك والدمار على نحوٍ جماعيٍ شاملٍ.

والعقوبة الثانية التي ذُكرت هنا تتمثل في: ((التقطيع))، يعني تمزيق شملهم وتحويل وحدتهم إلى فرقٍ وأحزابٍ شتى .. وقد حدثت معهم أيضاً هذه الواقعة الثانية بين الفينة والأخرى على مدار التاريخ .. ولم يكن قانون الله هذا خاصاً باليهود وحدهم، إنه ينسحب على تلك الطائفة التي تم تعيينها في منصب شهادة الله بعد عزل اليهود عنه، ولو أن المسلمين وجدوا أنفسهم بحيث تمكن الكفار والمشركون من التسلط والغلبة عليهم، وتحولت وحدتهم إلى قطاعاتٍ جغرافيةٍ صغيرةٍ متفرقةٍ، فعليهم أن يعودوا إلى الله، لأن معنى ذلك أنهم قد وضُعوا في موضع التقييم أو المحاسبة الإلهية الدقيقة.

﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٞ وَرِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَأۡخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغۡفَرُ لَنَا وَإِن يَأۡتِهِمۡ عَرَضٞ مِّثۡلُهُۥ يَأۡخُذُوهُۚ أَلَمۡ يُؤۡخَذۡ عَلَيۡهِم مِّيثَٰقُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّ وَدَرَسُواْ مَا فِيهِۗ وَٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۖ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ١٦٩ وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلۡكِتَٰبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُصۡلِحِينَ ١٧٠ ۞ وَإِذۡ نَتَقۡنَا ٱلۡجَبَلَ فَوۡقَهُمۡ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٞ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُۥ وَاقِعُۢ بِهِمۡ خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ وَٱذۡكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٧١ ﴾

خَلْفٌ: بدل سوء .

عَرَضَ هَذَا الأَدْنَى: ما يعرض لهم من حطام الدنيا .

وَدَرَسُوا مَا فِيهِ: قرءوا وعلموا ما في التوراة .

نَتَقْنَا الجَبَلَ: رفعناه وقلعناه .

كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ: غمامة . أو سقيفة تظل .

حين أُعطي اليهود الأحكام الإلهية في زمن سيدنا موسى عليه السلام فقد جرى ذلك في سفح الجبل ، وقد تم هناك إيجاد ظروفٍ وأحوالٍ خُيّل إليهم معها أن الجبل يريد أن يسقط عليهم، وكان الغرض من ذلك هو إشعارهم بأن عقد الميثاق مع الله أمر بالغ الخطورة، فلو أنكم لم تقوموا بالوفاء بمقتضياته، فلتتذكروا أن الطرف الآخر لهذا الميثاق هو الذات العظيمة الجبارة التي تقدر -إذا شاءت- أن تُسقط عليكم الجبل، فتسحقكم به !!

وقد كان هناك عدد لا بأس به من الصالحين والخائفين من الله بين ظهراني اليهود حينذاك، غير أنهم لم يلبثوا أن اتخذوا من الدنيا مقصودهم على مر الأيام، فأقبلوا على جمع الأموال من غير تفريقٍ بين الحلال والحرام، وعلى أنهم كانوا لا يزالون يدرسون الكتاب السماوي، إلا أنهم تناولوا تعاليمه بتأويلٍ باطلٍ مزعومٍ ، بحيث صار الله فيما يبدو مؤيداً لحياتهم المنحرفة المتمردة، وقد ازدادوا جموداً وقسوة قلبٍ، لدرجة أنهم اطمأنّوا قائلين: إننا شعب الله المختار، ونحن أولاد الأنبياء، إذن فلابد وأن يغفر الله لنا بفضل عباده المحبوبين !!

ويتكرر حدوث هذه الواقعة ذاتها مع أمة كل نبّيٍ ، إن أفراد الرعيل الأول منها يكونون على جانبٍ عظيمٍ من صلاح العمل وتقوى الله، بيد أن هذه الروح لا تلبث أن تتلاشى في الأجيال التالية ، فيعود هؤلاء كغيرهم تماماً من أصحاب الدنيا فكراً وسلوكاً.. وعلى أن الدين لا يزال موجوداً بين أظهرهم حتى الآن، كما أن اهتمام القوم بدراسة كتاب الله وتدريسه يكون باقياً مستمراً كذلك، ولكن ذلك كله إنما يتم على وجه الاحتفاظ بالتراث القومي، وليس فى الحقيقة، على وجه الوفاء بالعهد الإلهي !! فإنهم في حياتهم العملية يندفعون وراء مباهج الدنيا ذاهلين عن الآخرة ويجعلون من أهوائهم وشهواتهم ديناً وشريعةً لهم بغض النظر عما هو الصواب والغلط، إلا أنهم، مع

ذلك، ينظرون إلى أنفسهم نظرةً ملؤها الفخر والاعتزاز بأنهم - على حسب زعمهم - أفضل أمم الأرض قاطبةً، وأنهم أتباع حبيب الله، وورثة الكتاب السماوي، وأنه سيُغفر لهم بفضل كلمة التوحيد وبركتها بكل تأكيدٍ ، بيد أن المطلوب الرئيسي هو أن يتمسك المرء بكتاب الله بقوةٍ، ويقيم الصلاة، ومعيار التمسك بالكتاب الإلهي وإقامة الصلاة هو أن يكون المرء قد صار «مصلحاً» وإن من شأن الإقبال على عبادة الله، والاتصال بكتاب الله أن يجعلا المرء مصلحاً وليس مفسداً.

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾ ﴾

لو أننا أبعدنا حيواناً ما عن أحضان أبويْه في صغره، وقمنا بتربيته في بيئةٍ أخرى مختلفةٍ تمام الاختلاف؛ فإنه - بالرغم من ذلك - يظل، وقد كبر وشب بعيداً عن أبويه وأبناء فصيلته الآخرين، محتفظاً بخصائصه النوعية كلها، وهو يتبع في كل شئونه ومعاملاته الطريقة ذاتها التي أودعت في جبلته .

وذلك هو شأن الإنسان تماماً بالنسبة إلى «الشعور بالرب »، فقد تم تركيز الشعور بخالقٍ ومالكٍ في روح الإنسان بصفةٍ عميقةٍ لدرجة أنه لا ينفصل عنه على أية حالٍ، وفي العصر الحاضر تدلنا تجربة الاتحاد السوفيتي من ناحيةٍ، وتجربة تركيا من ناحيةٍ أخرى على أن فطرة الإنسان لا تزال، حتى رغم كونه نشأ وتربى في بيئةٍ مضادةٍ للدين، باقيةً على ما هي عليه تماماً كما قد ظلت دوماً في البيئات المؤمنة بالدين!!

بيد أن هناك فارقاً بين الإنسان والحيوان، وهو أن الحيوان غير قادر على مخالفة فطرته، فهو مجبر على أن يفعل عملياً ما تمليه عليه فطرته الداخلية .. أما الإنسان فيتمتع

بالحرية والاختيار الكامل فيما يتعلق بالتصرف والسلوك العملي، رغم كونه ملتزماً في مجال الشعور المودع في فطرته وجبلته، وإنه كلما عرض له أمر ما، وجد عقله وضميره يرشدانه من الداخل إلى ما هو الصواب وما هو الغلط، إلا أن الإنسان مع ذلك، له الخيار في أن يستجيب لندائه الداخلي إن شاء، وإن شاء أهمله وأخذ يجري وراء ما تدعو إليه نفسه الأمَّارة بالسوء .

وهذا هو المكان الذي يتم فيه امتحان الإنسان واختباره، وعلى نجاحه أو فشله فيه يتوقف مصيره إما إلى الجنة وإما إلى النار، وإنما الناجح في هذا الامتحان هو الذي ينصت إلى النداء الإلهي، ولا يفعل إلا ما يلقّنه الله إياه بلغة الفطرة الصامتة، وستُفتح له أبواب الجنة بعد أن يتوفاه الله .. وأما الشخص الذي يُهمل النداء الإلهي الذي يُذاع على مستوى الفطرة فإنه مجرم عند الله تعالى، وسيُقذف به بعد موته في نار الجحيم ، وسوف يهمله الله تعالى أيضاً تماماً كما كان قد أهمل نداء الله .. ونداء الفطرة هذا هو حجة الله تعالى على كل إنسان، ومن ثم فلا أحد يملك عذراً على جهله وعدم معرفته، ولا أحد يستطيع كذلك أن يقول إننا قد أخذنا بدورنا نمارس ما قد ظل يُتوارث منذ الأزمان السحيقة في القدم من تقاليد وعاداتٍ، فإنه إذا كان الإنسان يُولد على شعور بالله، وهو جزء لايتجزأ من شخصيته، بحيث إنه لا يزال محافظاً على هذا الشعور الفطري على رغم أنف البيئة المحيطة به، فما عسى أن يعتذر به أحد الناس عن ضلاله وانحرافه ؟

﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَث أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٧٨﴾ ﴾

فَانسَلَخَ مِنْهَا: فخرج منها بكفره بها .

فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ: فلحقه وأدركه وصار قرينه.

الغَاوِينَ: الضالين الهالكين .

أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ: ركن إلى الدنيا ورضي بها .

تَحْمِلْ عَلَيْهِ: تشدد عليه وتزجره .

يَلْهَثْ: يخرج لسانه بالنفس الشديد .

كان هناك رجل في زمن النبي ﷺ يُدعى أمية بن أبي الصلت، وكان قد بلغ درجةً ممتازةً من الفصاحة والحكمة، إلى جانب اتصافه بالأوصاف الإنسانية السامية، ولما علم أن كتب اليهود والنصارى تتضمن نبوءاتٍ عن بعثة نبيٍ عربيٍ، خيل إليه: ربما يكون هو ذلك النبي المرتقَب .. ولكن عندما وصل إليه خبر مبعث النبي ﷺ واستمع إلى كلامه الرفيع أُصيب باليأس الشديد، وأصبح بالتالي من معارضي رسول الإسلام ﷺ .

ولقد كان الاستخدام الصحيح للمواهب الجليلة التي أعطاها الله لأمية بن أبي الصلت، هو أن يعرف رسول الله، ويقوم باتباعه ونصرته ، غير أنه، بالنظر إلى عنايات الله به واغتراراً بها، كوّن في داخله فكرةً تقول: لا ينبغي لله أن يسوق الآن شيئاً من فضله إلى أحدٍ سوايَ !! وقد كان يرى في إنكار رسول الله منفعةً دنيويةً عاجلةً، وعلى العكس من ذلك لم يكن يُرجى من وراء الإيمان به - عليه صلوات الله وسلامه - إلا المنفعة الأخروية.. فآثر الرجل منافع الدنيا على منافع الآخرة، ولو أنه سار في اتجاه الاعتراف لاتخذ من الملائكة رفاق سفره، ولكنه حين أخذ يسير في طريق الحسد والكبرياء والغرور، فلم يكن ثمة من أحدٍ يصحبه ويرافقه غير الشيطان، وينطبق هذا المثال على جميع أولئك الذين يُهملون الصدق بدافع الحقد والتكبر، أو يرفضون الاعتراف به .

إن كون أحد الناس على هذا النمط، يعني انحطاطه بنفسه من درجة الإنسانية إلى درجة الكلب؛ فالكلب لا ينفك يلهث مهما عاملته بالحسنى أو السوء، وهذا هو شأن مثل هذا الشخص، حيث إنه إنما يستمد غذاء الطغيان من عطاء الله إذا أعطاه، ويبقى طاغياً متمرداً كذلك فيما لو حرمه الله .. بينما كان الأجدر به أن يشكر لله إذا أعطاه، ويرجع إليه تعالى راضياً بقسمته إذا هو لم يعطه .. ولهداية الناس لا يظهر الله - سبحانه وتعالى - بنفسه عياناً، بل هو يُرشد الناس إلى طريقه من خلال الآيات.. وإنما يظفر بالهداية في هذا العالم أولئك الذين يتمتعون بالاستعداد لمعرفة الحق الظاهر في صورة الدلائل والآيات، ثم هم يسلمون أنفسهم للحق بعد ما عرفوه عن طواعيةٍ وسرورٍ.. وأما الذين لا يعيرون الدلائل والآيات أي اهتمامٍ فليس لهم سوى الضياع والخسران الأبدي .

﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾ وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾ ﴾

ذَرَأْنَا: خلقنا وأوجدنا .

يُلْحِدُونَ: يميلون وينحرفون إلى الباطل .

وَبِهِ يَعْدِلُونَ: بالحق يحكمون في الخصومات بينهم.

سَنَسْتَدْرِجُهُم: سنستدنيهم إلى الهلاك بالأنعام والإمهال .

وَأُمْلِي: أمهلهم في العقوبة.

كَيْدِي مَتِينٌ: أخذي شديد قوي .

الصدق شيء لا يُدركه إلا من يجد ويجتهد في طلبه، فقد زوّد الله تعالى كل إنسانٍ بالقلب والعين والأذن ، وإنما يظفر المرء بالصدق باستخدام هذه القوى ذاتها، وأما الشخص الذي لا يقوم باستخدام هذه القوى فإنه سيظل - بالطبع - محروماً من إدراك الصدق، مهما كان موقعه قريباً منه .. وإدراك الصدق من جملة الأفعال النابعة من شعور المرء وإرادته الذاتية، فلا يفهم الصدق إلا شخص يكون قد فتح له أبواب قلبه، ولا يبصره إلا الذي لا يكون قد نسج على عيْنيْه أي حجابٍ مصطنعٍ ، ولا يسمع صوته إلا الذي يكون قد سد أذنه بأي نوعٍ من الغطاء ، فإن أناساً على هذا النمط، عندما عرفوا صوت الحق يلقون بأنفسهم بين يديْه .

وأما الشخص الذي شأنه على نقيضٍ من هذا، فإنه سيظل مثل الحيوانات لا يفقه ولا يعي ، ولن يتمكن من أن يشعر بثقل دلائل تميد بها الجبال، وستظهر أمامه تجليات الله، غير أنه سيبقى عاجزاً عن رؤيتها، وإنما يظفر بالصدق دوْماً أصحاب الضمائر اليقظة!!

إن انحراف الإنسان العقائدي بالنسبة إلى الله يرجع في معظم الأحوال إلى أنه يتخيل صورةً خاطئةً في ذهنه عن الذات الإلهية مع إيمانه المبدئي بها، حيث إنه ينسب إلى الله أموراً لا تليق به، وعلى سبيل المثال: اتخاذ عقيدةٍ قائلةٍ بوجود المقربين إلى الله قياساً على أحوال البشر، والافتراض القائل، بأن لله خلفاء وأعواناً تماماً كما يكون للملوك الأرض خلفاء وأعوان.. وتوهّم القضاء الإلهي بحيث يبدو معه محققاً لآمال المرء وأمانيه الذاتية، غير أنه لا يتفق مع العدل الإلهي، وإنما يعني الإلحاد في أسماء الله، أن يُعزى إلى الله أموراً كهذه لا تليق بسموه وعظمته تعالى .

﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾ أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ

أَجَلُهُمْ ۖ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾ مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ ۚ وَيَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾

جِنَّةٍ: جنون كما يزعمون.

مَلَكُوتِ: هو الملك العظيم .

طُغْيَانِهِمْ: تجاوزهم الحد في الكفر .

يَعْمَهُونَ: يعمون عن الرشد أو يتحيرون .

أَيَّانَ مُرْسَاهَا: متى إثباتها ووقوعها؟

لاَ يُجَلِّيهَا: لا يظهرها ولا يكشف عنها .

ثَقُلَتْ: عظمت لشدتها.

حَفِيٌّ عَنْهَا: باحث عنها عالم بها .

إن أكبر سمةٍ يمتاز بها الداعي هي أنه يكون إنساناً غير نفعي، فهو يفكر متسامياً بنفسه فوق التقاليد الزمنية السائدة، ويمارس عمله غير حاسب لمصالح البيئة القائمة أي حسابٍ، وهو يضحي بحياته وبكل ما يملكه من أجل هدفٍ لا يعود عليه من ورائه أية نتيجةٍ ماديةٍ في هذا العالم.. وهذا هو السبب في أن أعظم لقبٍ يناله الداعي من قبل معاصريه في أغلب الأحوال هو أنه ((مجنون)) .. وبما أن نبي الله يكون أكبر

إنسانٍ هادفٍ في عصره، لذا فما كان وصف الناس لأنبياء الله على تعاقب العصور والأجيال، إلا أن قالوا : إنهم مصابون بالجنون !!

وإنه ليس هنالك من ظلمٍ أشد وأعظم من أن يوصف الداعي إلى الله بأنه مجنون؛ من حيث إن الرسالة التي هو ينهض بأعبائها هي رسالة يشهد لصدقها كل السموات والأرض، وهو يدعو إلى إلهٍ يتجلى - بغايةٍ من الوضوح - في كل ما أبدعه في كونه من ظواهر ومخلوقاتٍ عجيبةٍ، وهو ينبئ بساعةٍ تكمن في السموات والأرض كحقيقةٍ تشبه في خطورتها الجنين في بطن إحدى الحوامل ، وقد حان مخاضها. الناس ليسوا جادين في شأن الحق، ومن ثم يبدو لهم المستهلك ماله وحياته من أجل الحق كأنه مجنون ، ولو أنهم أدركوا مدى قيمة الحق ونفاسته تمام الإدراك، لما قالوا ذلك أبداً .

« متى ستقوم الساعة » ؟! إن كل الأسئلة من هذا النوع لا تعدو أن تكون نتاج العقول العابثة أو غير الجادة .. إذْ إن الإيمان بيوم القيامة يتوقف على وجود دليلٍ مبدئي في حقه، وليس على أن يتم الإعلام بموعد قيام الساعة على وجه التحديد، وما دامت هذه الدنيا دار الامتحان، فإنما سيتم الإخبار بالقيامة هنا في لغة التنبيه والإنذار، وليس في لغة المعادلات الرياضية المحددة .

﴿ ۞ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ ۖ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ ۚ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ ﴿١٩٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ۖ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ

صَٰدِقِينَ ﴿١٨٩﴾

تَغَشَّاهَا: واقعها .

فَمَرَّتْ بِهِ: فاستمرت به بغير مشقة .

أَثْقَلَت: صارت ذات ثقل بكبر الحمل .

صَالِحاً: نسلا سويا أو ولدا سليما مثلنا.

جَعَلاَ لَهُ شُرَكَاءَ: بتسمية ولديهما عبد الحارث بوسوسة إبليس مريدا بالحارث نفسه .

عَمَّا يُشْرِكُونَ: أي العرب بعبادة الأصنام .

إن الكون يعرفنا بصانعه تعريفاً لا يتقبل مفهوم الشرك على أية حالٍ، فالكون يزخر بأجزاء وعناصر لا تُحصى وهي تُوجد مبعثرةً ومنفصلةً بعضها عن بعضٍ، غير أن هذه الأجزاء والعناصر المختلفة تتحول بجموعها إلى كلٍ منسجمٍ متناسقٍ بعضها مع بعض .. فليس بينها أي نوعٍ من التناقض أو التصادم، وهذا الانسجام الكامل والتناسق البديع يستحيل وجوده فيما إذا لم يكن خالق هذا العالم ومالكه واحداً، وإذا لم يكن هو ذاته قائماً بإدارته وتدبير أموره .

ولْنأخذ مثلاً علاقة الرجل والمرأة، فلعلنا لا نجاوز الحقيقة إذا قلنا: إن التوافق التام الذي يُلاحظ بين رجلٍ وامرأةٍ، هو أغرب واقعةٍ إطلاقاً يجربها أحد الناس في رحاب هذا الكون، فكل من الرجل والمرأة له كيان منفصل ومستقل بذاته عن غيره ، بيد أنه حين يتم الاتصال بين هذين كزوجٍ وزوجةٍ، فإن كيان الاثنين يندمج أحدهما في الآخر على نحوٍ لا يبقى معه شيء من الثنائية بينهما، حيث يُخيل إلى كل واحدٍ منهما : كأنما خُلقت له وأنه قد خُلق لها، وهذا الشعور بالوحدة والانسجام العميق بين الاثنين ليس إلا برهانا صارخاً على أن ثمة إرادة وقوة واحدة لا غير، هي التي قامت بإيجاد الصنفين

كليهما بهذا الأسلوب الخاص وفقاً لتدبيرها المسبق .. إذْ لو كان هذا الكون يتحكم فيه أكثر من ذاتٍ واحدةٍ، لما أمكن وجود هذا الانسجام والتوافق الشامل بين شيئين مختلفين ومتناقضَيْن !!

وإن تعجب فعجب أن يتخذ المرء من الشرك ديناً له في كونٍ فيه من دلائل التوحيد ما لا يقع تحت الحصر ! فمن خلال هذه «الوحدة» أو «الاندماج» الغريب بين اثنين من البشر، يبرز إلى الوجود ولد ثالث، ولكنه عندما يولد يصطنع بعضهم عقيدةً تقول: إن هذا الولد لم يولد إلا ببركة الشيخ فلان، بينما نسبه بعض آخر إلى الآلهة الخيالية المفترضة .. ومنهم من قال : إنه ليس إلا نتاج التفاعل بين قوى المادة العمياء، وزعم بعض أنه حصيلة جهوده الذاتية التي تمثلت في صورة ولدٍ جميلٍ سَوِيّ الخِلْقة وسيم الطلعة !

﴿ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۗ قُلِ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾ إِنَّ وَلِيِّىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا۟ ۖ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾ ﴾

فَلاَ تُنظِرُونِ: فلا تمهلوني ساعة .

لاَ يُبْصِرُونَ: لعدم قدرتهم على الإبصار.

يزعم المتفلسفون من الوثنيين أن الأصنام والتماثيل التي يصوغونها من الحجر أو بعض المواد المعدنية، إنما هي مظاهر خارجية قد حل فيها إلههم المزعوم، ومن ثم فعبادة هذه المظاهر عندهم بمثابة عبادةٍ لتلك المعبودات ذاتها التي يزعمونها علاماتٍ حسيةً على وجودها بيد أن السواد الأعظم، يأخذون في اعتبار هذه التماثيل مقدسةً في حد

ذاتها، بينما لا تقدر هذه الأصنام على المشي والبطش، ولا على الرؤية والسماع، ولكن الإنسان المتوهم لا يلبث أن يظنها قادرةً على إعانته وسد حاجاته !!

على أن هذا الأمر لا ينحصر في نطاق النوع المعروف من الأصنام وحده، بل هذا هو الشأن تماماً بالنسبة لجميع الأشياء التى يرفعها الإنسان إلى درجة الألوهية، فلنتساءل : ما هي حقيقة الأشياء، من الوطن، إلى القوم، إلى الشخصيات الحية أو الميتة .. إلخ، التي يتم اتخاذها مركزاً لعواطف ساميةٍ لا يستحقها إلا الله الواحد الأحد ؟! فلا أحد منها يملك أي نوعٍ من القوة الذاتية، إذْ ليس بذي رجْلٍ أوْ ذي يدٍ أوْ ذي عينٍ مالكاً لأعضائه تلك، فكل ذي ((رجلٍ)) لا يملك إلا رجْلاً موهوبةً، ولو أنها انتزعت منه يوماً، لما أمكنه أن يستردها مرةً أخرى .. وكل ذي ((يدٍ)) لا يملك إلا يداً موهوبةً، ولو أنها تعرضت يوماً للضياع، لما استطاع أن يصنع يده مرة أخرى.. وكل دى ((عين)) لا يملك إلا عيناً موهوبة ، ولو أنه فقدها يوماً فلن يتمكن أبداً من إعداد عينٍ جديدةٍ له !!

إن العَبَدة لغير الله ظلوا دوماً يظلمون ويضطهدون عبّاد الله الواحد الأحد، اعتماداً على أصنامهم، غير أنهم سرعان ما يعلمون مدى بطلان اعتمادهم ذاك في عالم الله هذا، فإن القدرة الإلهية التي تم ظهورها في صورة الميزان الكتابي في هذا العالم، ستتجلي، عما قليلٍ، في صورة ميزان العدل العملي، وحينئذٍ سيرى كل امرئٍ أنه لم يكن هناك وليّ ولا معين غير الله تعالى، وإن كان المرء بسبب جهله وسفهه، يعتبر الآخرين أولياءه وأنصاره، إن الشركاء غير قادرين على أية نصرةٍ أوْ إعانةٍ، بينما الله – عز وجل – كفيل بنصر عباده الأوفياء وإمدادهم في الدنيا والآخرة معاً .

﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى

﴿ٱلْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾﴾

خُذِ الْعَفْوَ: ما عفا وتيسر من أخلاق الناس.

وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ: بالمعروف حسنه في الشرع .

يَنزَغَنَّكَ: يصيبنك ، أو يصرفنك .

نَزْغٌ: وسوسة ، أو صارف .

مَسَّهُمْ: أصابتهم لمة أي وسوسة ما .

تَذَكَّرُوا: أمر الله ونهيه وعداوة الشيطان .

يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ: تعاونهم الشياطين في الضلال.

لاَ يُقْصِرُونَ: لا يكفون عن إغوائهم.

إن الدعوة إلى مبادئ التوحيد والآخرة، والخير والعدل، هي دعوة إلى ((العرف)) يعني إلى جملة تلك الخيرات والحسنات التي هي معروفة ومألوفة لدى العقل والفطرة السليمة.. غير أن هذا العمل – المتناهي في السهولة كما يبدو – لم يزل أشق عملٍ في كل عصور التاريخ .. فالناس في كل العصور، نتيجة حبهم للعاجلة، يبنون نظام حياتهم على أساسٍ من المنافع الدنيوية والمصالح الشخصية ، حيث إنهم يشتغلون بالعبودية للباطل رافعين شعار العبودية للحق، وفي مثل هذا الوضع حينما – وأينما – تقوم الدعوة الخالصة إلى الصدق، يخيل إلى الكل وكأنما هي ضربة موجهةٍ إلى ذاته ومنفعته هو، وبالتالي فكل شخصٍ لا يلبث أن يتصدى لمعارضتها ووضع العراقيل في طريقها .

وما الموقف الذي ينبغي للداعي أن يتبنّاه في حالةٍ كهذه ؟ إن هناك جواباً واحداً عن هذا السؤال لا ثانى له، ألا وهو : العفو والإعراض، يعنى مواصلة العمل والاستمرار فيه من غير تورطٍ فى نزاع ما مع الناس، فلو أن الداعى أخذ يرد على الأباطيل التى

يفتعلها المعارضون، لتحولت دعوة الحق إلى مناظرةٍ عقيمةٍ لا تنتهى .

ولو أن الداعي شغل نفسه بالأسئلة غير الضرورية المثارة من قبل الناس، لضيّع وقته وطاقته في غير طائلٍ ، ولو أن الداعي بدأ يقاتل الناس على أذاهم وإساءاتهم إليه، فلن تظل دعوة الحق دعوةً إلى الحق، بل ستنقلب نضالاً سياسياً واقتصادياً ؛ ولذا فليس لإبقاء دعوة الحق على صورتها الأصلية الناصعة من سبيلٍ إلا أن يصبر الداعي على إساءات الجاهلين والمعاندين، ويواصل عمله الإيجابي، ماضياً في سبيله، بدون أن يتورط معهم في أي نزاعٍ أو شجارٍ .

على أن شخصاً ما لا ولن يكون في العلم الراهن بمنجاةٍ من هجمات النفس والشيطان ، والشي الذي يحمي المرء سن الانزلاق في مثل هذا الموقف هو خشية الله لا غير، إن الخشية من الله تجعل المرء مرهف الحس للغاية ، وهذه الحساسية المتناهية هي الدرع الواقي للمرء في عالم الامتحان الراهن .. فكلما هجس في صدر المرء هاجس سوء، أوْ انبعثت نفسية سلبية من أي نوعٍ، فلا تلبث هذه الحساسية أن تدله فوراً على أنه قد انزلق.. فإذا به يصحو ويستيقظ بعد غفلةٍ طارئةٍ، ويقوم بإصلاح نفسه من جديدٍ تائباً إلى الله مستغفراً إياه تعالى لذنوبه . وعلى العكس من ذلك فالذين تكون قلوبهم خلواً من خشية الله، فإن الشيطان لا يزال يعمل عمله في نفوسهم، وهم لا يشعرون إلى أي هاويةٍ من الضياع والدمار ، يتقدمون انسياقاً وراء نزغاته وإغراءاته . رهافة الحس أو الحساسية هي أكبر حارسٍ للمرء ، بينما القسوة وبلادة الإحساس تجعل من المرء ضحيةً سهلةً للشيطان .

﴿ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ قَالُواْ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا ۚ قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ مِن رَّبِّى ۚ هَـٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾ وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْـَٔاصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَـٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ

رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ﴿٢٠٦﴾

اجْتَبَيْتَهَا: اختلقتها واخترعتها من عندك .

هَذَا بَصَائِرُ: القرآن حجج بينة وبراهين نيرة.

تَضَرُّعاً: مظهرا الضراعة والذلة .

وَخِيفَةً: خائفا من عقابه.

بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ: أوائل النهار وآواخره ، أي في كل وقت .

وَلَهُ يَسْجُدُونَ: يصلون ويعبدون (آية سجدة) .

كان أهل مكة يقولون لرسول الله ﷺ : هلاّ جئت بأية معجزةٍ تدل على صدقك، إذا كنت نبياً مرسلاً من عند الله !؟ ولقد كان من اليسير جداً على الله تعالى، وهو القادر المطلق، أن يزود رسوله بمعجزةٍ ما، غير أن ذلك لم يكن ليتم إلا على حساب المقصد الحقيقى .

ولْنفترض - مثلاً - لو أن سيارةً رائعةً من الطراز الحديث، مزودةً بالمجهار أو مكبّر الصوت، كان قد تم إنزالها على النبي ﷺ من السماء، فهو يستقلها في غدواته وروحاته يبلغ الناس رسالة ربه. لو أُنزلت سيارة كهذه لكانت - من غير شكٍ - معجزةً مدهشة للغاية لأناسٍ كانوا يعيشون أوضاع ما قبل خمسمائة وألف سنةٍ من الزمان . ولكن ذلك كان ينطوي على خسارةٍ، وهي أن ينصرف اهتمام الناس عن الموضوع الحقيقى، فإن المقصد الأصلي كان يتكمن في أن يصبح كلام الله بصيرةً للناس، ويتعلم الناس منه أسلوب التفكير ومنهاج العمل، وتحصل به الأرواح على البرودة والسكينة الإلهية، ولكن بعد نزول المعجزة المذكورة آنفاً لذهب هذا التدبير برمته أدراج الرياح، وظل الناس - بالتالي -مأخوذين بأعجوبة المركبة الطلسمية وكفى .

ليس الدين عَلَماً على الانسياق وراء الخوارق والكرامات، وإنما الدين أن يوجه المرء

اهتمامه نحو كلام الله، فيقرأه بتدبرٍ وإمعانٍ،ويستمع له بعنايةٍ بالغةٍ وعلامة التدين هي أن تقوم بين المرء وربه علاقة متينة وعميقة، وتتولد في قلبه الرقة، ويتغلغل في أحشائه الخشوع،وأن يصبح ذاكراً لله ليل نهار، وأن يسيطر الإحساس بعظمة الله على قلبه وعقله بحيث يملأه خوفاً وتواضعاً، فيصبح صوته، وهو يذكر الله - عز وجل - خافتاً منخفضاً،وعلى الجملة فالمتدين هو الذي يكون قد نفض عن نفسه غبار الغفلة،ودخل إلى عالم اليقظة الدائمة،وقد اختتمت السورة ببيان سلوك الملائكة، وذلك لكي تسيروا أنتم الآخرون سيرتهم، وتنسجوا على منوالهم،فتتمتعوا بصحبة أولئك الملائكة الأطهار، وحين يطهّر المرء نفسه من الكبر والغرور، ويغمره الشعور بكمالات الله، لدرجة أنه يأخذ يتفجر من جوانبه ذكره تعالى، فإنه يصبح هو والملائكة على مستوى واحدٍ، وإن أرفع درجةٍ لرقي أحد الناس في هذا العالم هي أن يكون قد صار ذا سلوكٍ ملكوتيٍ رغم كونه بشراً، وأن يبدأ يعيش بجوار الملائكة رغم كونه لم يفارق هذا العالم المادي بعد !